المرأة المصرية والشامية
فى عصر الحروب الصليبية

د. على السيد على



المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

اهداءات ٢٠٠٤
المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المرأة المصرية والشامية

فى عصر الحروب الصليبية

تأليف

د. على السيد على



٢٠٠٢



مقدمة

تعرضت بلاد الشام ومصر أواخر القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر للميلاد لحركة استعمارية استيطانية من قبل الغرب الأوروبى، وهى التى اشتهرت فى التاريخ تحت اسم "حروب الفرنج" أو "الحركة الصليبية" أو "عصر الحروب الصليبية"، والتى استمرت قرابة قرنين من الزمان، احتدمت فيهما كثير من المعارك الحربية فوق رمال بلاد الشام، والعراق، ومصر ؛ إلى أن جاء عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م معلنًا نهاية الوجود الصليبى على أرض فلسطين .

ومع اعترافنا بأن هذه المنطقة التى تشمل مصر، وبلاد الشام – بحدودها السياسية المعروفة لنا الآن بسورية ولبنان وفلسطين والأردن – بموقعها المتميز من العالم، كانت منذ القدم مسرحًا لكل الهجرات التاريخية الكبرى التى عرفها العالم القديم، وداخل هذه المنطقة الشاسعة سكنت أقوام وجماعات عديدة عبر عصور التاريخ، وساعدتها طبيعة التضاريس المتنوعة على أن تكون بمثابة متحف حى يدل على الأقوام، والحضارات، والأديان، والمذاهب ؛ إلا أن عصر "حروب الفرنج" أو "الحروب الصليبية" كان صداماً عسكرياً ومواجهة حضارية طويلة مضنية بين الشرق العربى الإسلامى والغرب الأوروبى الكاثوليكى. وترتب على الوجود الصليبى، والصراع ضده، أن شهدت المنطقة سيولة فى البنية السكانية لما نجم عن عمليات التفريغ السكانى وزرع مستوطنين جدد محل السكان المحليين وما استتبع ذلك من كثير من الهجرات.

كما أن هذا العصر نفسه كان عاملاً له أهميته فى زيادة التعامل التجارى بين الشرق والغرب، فعلى أثر إقامة الفرنج فى هذه البلاد أتيحت لهم الفرصة لتزداد معرفتهم بمنتجات الشرق وسلعه. مما أدى إلى تزايد ملحوظ فى إقبالهم عليها، وتطلع أبناء الغرب الأوروبى للحصول على هذه السلع، إلى جانب وجود كثير من أبناء المدن

التجارية الغربية من جنوا وبيزا والبندقية، ومرسيليا، وبرشلونة، وقطالونيا، وغيرهم ممن كانت التجارة بالنسبة لهم هى الدافع الأصيل للمشاركة فى هذه الحروب، فراحوا يقومون بالتوسط بين الشرق العربى والغرب الأوروبى، وعقدوا كثيراً من الصفقات التجارية مع أبناء البلاد المحليين الذين كانت لهم السيطرة على تجارة الشرقين الأدنى والأقصى ٠ مما ترتب عليه تحقيق ثروات هائلة لأبناء هذه البلاد وحكامها ٠

كذلك شاءت العناية الإلهية أن يكون قيام دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام فى منتصف القرن السابع الهجرى، الثالث عشر للميلاد مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر، واضمحلال ما عداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب . ذلك أنه لم يكد يمضى على قيام دولة سلاطين المماليك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى، فضلا عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزاً لدولته فى الشرق، وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة، وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهة أخرى، وقد أشار الرحالة ماركو بولو فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى إلى ما ترتب على غزوات المغول من انعدام الأمن فى ذلك الطريق، واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة، فى الوقت الذى قل فيه إقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين فى ذلك الخليج، ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى البحر الأحمر ٠

وترتب على ذلك ازدهار واضح وثروة ضخمة إذ غدا أهل الشام ومصر من أكثر أهل البلدان أموالاً وتجارة ٠ وانعكست آثار تلك الثروة فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر، من احتفالات فخمة، وملابس فاخرة، وحلى ثمينة، وعمارة منيفة، كان للمرأة دور كبير ونصيب وافر فيها ٠ يضاف إلى هذا أن طبقة المماليك وهى الطبقة التى دخلت على المجتمعين المصرى والشامى وحكمت مدة تزيد على قرنين ونصف من الزمان، هذه الطبقة كانت لها نظمها وعاداتها وملابسها ٠ وأول ما يلفت

النظر ما كان لهؤلاء المماليك من تأنق فى الأزياء، وقد سرت عدوى هذا التأنق إلى المجتمعين المصرى والشامى. ومما يلفت النظر أيضًا ما عرف عن هؤلاء المماليك من بذخ شديد انعكس أثره فى حياة المجتمع وبخاصة فى اقتناء الجوارى، ولاشك أن ما شنه المماليك من حروب ضد الفرنج والمتحالفين معهم من أرمن ونوبة، ومعاقل الصليبيين فى قبرص ورودس وغيرها أمدهم بأعداد ضخمة من سبايا الحرب، والذين كان لهم الدور البارز فى الفساد الذى استشرى فى المجتمع فى ذلك الوقت . إلى جانب اتخاذهم المغانيات، والتمتع بكل أسباب اللهو والطرب، مما كان له أثره الواضح فى أوضاع المرأة، ونظرة المعاصرين لها فى مصر والشام.

كذلك يمكننا القول أن الغزوة الصليبية قد صحبتها حركة رد فعل قوية لدى السكان المحليين، تمثلت فى حركة الإبهار التى تشهد عليها كثير من النواحى، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر صناعة الأقمشة وزخرفة الملابس، والتى ازدهرت فى مدن مثل الإسكندرية وتنيس والقاهرة، ودمشق وحلب، وساعد عليها هجرة الفنانين والصناع بعد تدمير المغول لمراكز الحضارة الشرقية فى إيران والعراق . كما تمثلت حركة الإبهار هذه فيما قام به أبناء هذه البلاد من حركة جهاد دينية، شاركت فيها المرأة بدور رائد ماديًا ومعنويًا، وإدارة الصراع مع العدو الدخيل، وفى بطولاتها ونخوتها والتى لم تقل عن بطولة ونخوة الرجال .

الفصل الأول

صورة المرأة فى المجتمع ومكانتها

أما عن المرأة فى المجتمع المصرى والشامى عصر الحروب الصليبية، فنحن أمام صورتين مختلفتين تمام الاختلاف . فالمصادر التاريخية وكتب الرحالة الذين زاروا البلاد فى ذلك العصر، بل وحتى المصادر الوثائقية كلها تشير إلى أن المرأة تمتعت بقسط كبير من التقدير والاحترام . بينما المصادر الأدبية - والأدب مرآة الشعوب - تعطينا صورة مناقضة تمامًا، وأن نظرة المعاصرين للمرأة قامت على أساس أن الله خلقها للمتعة الجسدية والاستغلال ليس إلا . ولم تكن هذه الظاهرة تنفرد بها مصر وبلاد الشام فحسب، بل هى ظاهرة عامة فى بلدان المشرق، خصوصًا إذا وضعنا فى اعتبارنا ظاهرة انتشار الجوارى فى ذلك العصر، وشغف الناس باقتناء الجوارى الحسان ودفع الأموال الطائلة فى شرائهن[١] .

وعن الجانب المشرق لمكانة المرأة وتمتعها بكثير من الاحترام والتقدير، فهناك الكثير من الشواهد الدالة على ذلك . وخير شاهد على ذلك تلك الألقاب التى أطلقها الناس على نسائهم وبناتهم، فعند الحكام من سلاطين وأمراء نسمع عن لقب "خاتون" والذى يعنى فى الأصل "أميرة" ثم أصبح يستعمل لتكريم المرأة عمومًا، مثل لقب "السيدة" أو "الآنسة" فى عصرنا الحالى[٢]. وعند المحكومين نسمع عن ألقاب منها "الأصيلة" و"ست الخلق" و"ست الحكام" و"ست الناس" و"ست القضاة" و"ست الكل و"ست الأهل" و"ست النظر" و"ست قريش" و"شمس الضحى" و"شمسية" و"علماء" و"تاج النساء" و"عصمة الدين" و"الزهراء" و"اللطيفة" . وكذلك الكنى مثل "أم الحسن" و"أم الخيرات والبركات" و"أم كلثوم" وغيرها من الكنى والألقاب وأسماء الأشخاص المقدسة لدى جميع أبناء الديانات السماوية الثلاث[٣] .

كما نسمع أنه إذا خرجت إحدى النساء إلى الطريق وكان زوجها مقتدراً فإنه يحضر لها حماراً يقوده مكارى ويتبعها خادم . ورغم قلة الإشارات وندرتها فى المصادر المعاصرة عن النساء، فإننا نجد كثيراً منها يعبر عن الثناء والتقدير. فالسخاوى يصف إحدى النساء بأنها "ذات رياسة وقناعة وإتقان ويحكى أنه عند موتها شيعت "فى مشهد جميل" [٤] .

كذلك كان الفخر بنسب الأم أحد الشواهد التى يستدل بها على مكانة المرأة ومدى ما تمتعت به من تقدير وثناء، ولنذكر مثالاً لذلك بما أورده أحد المؤرخين المعاصرين فى حديثه عن سنة ٦٥٧هـ حيث يقول : وفيها ولد الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه. وأمه عايشة خاتون بنت الملك العزيز، وأم جده ملكة خاتون بنت الملك العادل، كما قال فيهم الشاعر

طوبى لفرعيه من هنا وهنا　　　طوبى لأعراقه التى تنسخ[٥]

والمثال الآخر للفخر بنسب الأم ما أوردته بعض المصادر عن أم السلطان محمد بن قلاوون بأنها "الخاتون المكرمة بنت سكتاى بن قراجين بن جنغان نوين .. وهؤلاء من الأعيان المشهورين والكبراء المذكورين" أو "أشلون خاتون بنت سكتاى بن قراجين"، أو "هو من الدار الرومية من العظم القانى، جده لأمه سكتاى بن باجو أكبر عظماء التتار، فجمع الله له أطراف الفخار" أى أنه ابن سلطان وأمه ابنة أحد العظماء من الرجال[٦] .

يضاف إلى هذا كثرة ما تطالعنا به المراجع التاريخية وكتب التراجم من أوصاف لنساء من ذلك العصر، بأن الواحدة منهن "كانت من النساء العفائف، وذات معروف وصدقة وصلاح" أو أنها "كانت دينة عفيفة بارة، كثيرة الأوقاف على الخير" أو

أنها "كانت على كثير من الدماثة والاحتشام" أو أنها ذات "الستر الرفيع" أو "الحجاب المنيع" (٧) .

وإذا ألقينا نظرة إلى ما كتبه أسامة بن منقذ عن المرأة ومكانتها، وهو الفارس والأديب الذى قضى معظم شبابه فى بلاط نور الدين محمود بدمشق، وفى رفقة صلاح الدين الأيوبى، ومعظم سنى كهولته فى الموصل وحصن كيفا على نهر دجلة، والذى تعتبر سيرته موجزاً لتاريخ بلاد الشام ومصر فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر للميلاد . فهو يصور لنا مكانة المرأة فى حادثة وقعت لامرأة كانت يوماً زوجة له، وطلقها فوقعت أسيرة فى يد الفرنج، ففك للحال أسرها وسلمها لأهلها بعد أن اشتراها من الفرنج بخمسمائة دينار وقال لأهلها : ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت على فى أسر الإفرنج(٨) .

كما أن احترام أسامة نفسه لجنس النساء أمر يسترعى الانتباه، فإنا نراه يضع مؤلفاً أسماه "أخبار النساء" ويكرس فى كتاب "الاعتبار" صفحات طويلة للإشادة بأعمال البطولة التى قام بها البعض منهن، وبينهن والدته ٠ وما ألطف ملاحظته بعد أن افتدى أسيرة مسلمة مع غيرها من يد الإفرنج فهربوا قبل أن يدفع الثمن فألزمه الإفرنجى الذى كانت فى أسرة بدفع القيمة كلها فدفعها له راضياً قائلاً : "وهان ذلك على لسرتى بخلاص أولئك المساكين" (٩) .

ومن المؤرخين المعاصرين من عبر عن تلك المكانة بطريقة أخرى، ففى حديثه عن "الشوار" أو "جهاز العروس" صور لنا جهاز إحدى الأميرات بما يدل على مكانة المرأة، ومدى البذخ فى مناسبات الزواج بقوله : كان جهازا قليل المثل لعظيم ما فيه من الجواهر والفصوص والذهب والقماش المختلف الألوان، وعد الحمالون فبلغت عدتهم خمسمائة حمال خارجا عن عشرة قطر بغال، والحجاب قد مشوا بين يديه - أى العريس وهو الأمير منطاش - وغالب العسكر والأعيان، فأخلع عليهم وأحسن إليهم. وكان العريس، قد قام بأمر العرس، وصنع أشياء كثيرة من الأغنام والأبقار والخيول

والسكر والأعسال، وهيأ لها عبوة من الذهب لأجل نقوط المغانى والمواشط وما أشبه ذلك، وصنع لها أموراً زائدة على الحد، وبنى بها فى ليلته، وعندما زفت إليه قام إليها وعلق على شربوشها ديناراً زنته مائتا مثقال، ثم آخر زنته مائة مثقال(١٠) .

وتشير كثير من المصادر الوثائقية فى مصر والشام إلى الحرص الشديد من الرجال عندما يشعرون بمرض قد يخشى منه الموت، على أن يتركوا لنسائهم وبناتهم أو أمهاتهم وأخواتهم، ما يضمنون به لهم حياة كريمة، خصوصاً إذا كان الزوج لم ينجب من زوجته، أو يكون بلا وريث من الأولاد، وفى هذه الحالة ولأن الورثة لن تستغرق الإرث كله، فإن بيت المال سيحصل على نصيب أكبر من التركة، فكان الرجل منهم إما أن يعمل حصراً بموجوداته قبل الوفاة على يد أحد قضاة الشرع والشهود، ويثبت أن تركته مدينة لزوجته وأن لها فى ذمته مبلغ كذا مؤخر صداق، أو أن يقوم ببيع كل ممتلكاته لها أو وقفها عليها أو على أخته أو أمه أو ابنته . ولم يكن مثل هذا التصرف قاصراً على المسلمين، بل شاركهم فيه أبناء أهل الذمة من مسيحيين ويهود فى كل من مصر والشام فى ذلك العصر(١١) .

كذلك هناك ما يفيد بأن المرأة قد تمتعت بكامل حقوقها وحريتها المدنية التى جعلت منها أهلاً لإجراء العقود، وتحمل الالتزامات، وتملك العقار والمنقول، والتصرف فيما تملك، سواء كانت متزوجة أم غير متزوجة، دون تدخل من أحد أو وصاية عليها طالما أنها رشيدة . والمصادر الوثائقية تثبت بالدليل القاطع أن المرأة كانت إذا وكلت أحداً مثلاً فى القيام ببعض الأعمال نيابة عنها، وأنها كان لها كل الحق فى استمرار هذه الوكالة أو سحبها منه متى رأت ذلك فى صالحها(١٢).

كما تشير بعض المصادر الوثائقية إلى حرص الرجل على أن تكون زوجته هى الوصية الشرعية على أولاده فى حالة وفاته، وأن تتصرف التصرف الشرعى فى أمواله التى سيتركها لهم بعد الوفاة وغالبا ما كان يسجل رغبته هذه فى شكل وصية يسجلها

لدى كبير القضاة فى بلدته أو مدينته ويتم توثيقها حسب المتبع آنذاك ويسلمها للزوجة كمسوغ رسمى وشرعى يخول لها هذا الحق دون سواها(١٣).

وإذ نحن ألقينا نظرة على ما جاء فى بعض كتب الرحالة الذين زاروا البلاد فى ذلك العصر، لأمكننا أن نستشف بعض الجوانب المضيئة عن مكانة المرأة، فها هو أحد الرحالة يقول : إن الاحترام الواضح كان لكل النساء سواء المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمات، بحيث كن يتنقلن من مكان لآخر دون حارس، ودون أن يتعرض لهن أحد بكلمة سوء، سواء أكان كبيراً أم صغيراً . وإذا حدث والتقت واحدة منهن فى الطريق برجل لا تعرفه، فإنها تميل عنه ببصرها . كما أنها كانت تسير وهى تضع على وجهها الخمار بحيث لا يمكن التعرف عليها، وغالبًا ما تسير محتشمة، ولم تحاول إبراز مكانتها وجمالها بحيث تلفت الأنظار إليها(١٤) .

وانظر معى إلى قول رحالة آخر عاش فترة كبيرة فى بلاد الشام، وهو الأب "سوريانو" حين يقول : يجب أن تعلم أن المرأة هنا تلقى كثيراً من التقدير والاحترام من قبل الرجل، وأنه على الرجل أن يقدم لها يوميًا كثيراً من الأموال نظير تكاليف الحياة. أى أن المرأة كانت هى ربة الأسرة التى تتولى توجيه الأموال لشراء ما يلزم منزلها وأولادها وزوجها . ثم نراه يقول : وكذلك كان على الرجل أن يمنحها الكثير من النقود سنويًا لشراء، ما يلزمها من ملابس وأحذية وكذلك الحال عندما تلد طفلاً جديداً(١٥) .

كذلك لاحظ الرحالة "سانودو" أن النساء كن يتمتعن بقسط وافر من الحرية، حتى أن بعضهن كن يتغيبن عن منازلهن فى أوقات كثيرة من النهار، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن وذلك من فرط الثقة اللاتى حظين بها (١٦) بل إن الرحالة "فريسكو بالدى" فى حديثه عن نساء القاهرة يؤكد أنه وجد بها كثيراً من النساء اللاتى يقمن بكثير من الأعمال التجارية، فهن يذهبن إلى الإسكندرية عن طريق رشيد ودمياط، بل ويتجولن فى كل أنحاء البلاد للتجارة، ويركبن الخيول الرائعة، والغالبية منهن

جميلات وحسان ويتزين بكل أنوا ع الزينة[١٧]. بينما يذكر الرحالة "فيلكس فابرى" أنهن من حيث زينتهن وملابسهن واتخاذهن الحجاب، وشكلهن الخارجى كن وقورات بحيث لا يمكن مقارنتهن بنساء الغرب الأوروبى آنذاك، مما جعلهن يحظين بمكانة لائقة فى المجتمع[١٨] .

كما وردت إشارة لدى الرحالة - "بيرو طافور" تؤكد لنا أنه كان لبعض بنات الأسر المسلمة بوجه خاص - وكما كان لبنات أهل الذمة - رأى فى اختيار أزواجهن وبخاصة إذا كان هذا الزوج ممن أسلموا حديثًا، ونال حظوة من السلطات الحاكمة . إذ كان من المألوف أن ينظر إلى زواج المسلمة الأصل من مثل هذا الرجل باعتباره عيباً كبيراً، أى أنه بالرغم من إسلام أمثال هذا الرجل، فإن بنات الأسرات المسلمة العريقة كن يرفضن الزواج منه، علمًا بأن هذه الفترة قد شهدت إسلام كثيرين من أهل الذمة الذين وفدوا إلى البلاد من الغرب الأوروبى بوجه عام وإسبانيا بوجه خاص[١٩] .

على أنه من المبالغة أن نصور المجتمع فى مصر والشام فى ذلك العصر وقد قدر المرأة على طول الخط، وأحلها المكانة اللائقة فى المجتمع، على أساس أنها شريكة الرجل وساعده الأيمن . وحتى تكون الصورة حقيقية لمكانة المرأة يجب أن نشير إلى الجانب الآخر من هذه الصورة، حتى نخرج بصورة هى أقرب إلى الواقع لما كانت عليه، وهذا ما يمكن أن نستدل عليه من كثير من الإشارات التى وردت فى كتب المعاصرين، والتى سنكتفى ببعضها .

إذ أن هناك كثيـر من الإشارات الدالة على أن المرأة ظلت محل الازدراء والاستخفاف، فمن هذه الإشارات ما جاء فى بعض المراجع من أن الفتاة لم يكن لها رأى فى الغالب فى اختيار شريك حياتها، بل ظل الرأى الأول والأخير لوالدها، وربما شاركه فى ذلك بعض الأقارب من الرجال [٢٠] ومن ذلك ما يخيم على المنزل من كآبة عندما يعلم الزوج بأن زوجته رزقت بطفلة، فلا يعطيها أحد الاهتمام حتى تكبر وتوشك على الزواج . ومنذ الطفولة تبدو البنات وكأنهن سيدات صغيرات، فملابسهن تشبه

تماماً ملابس أمهاتهن ولكن يختلفن من حيث الحجم، كما تقع عليهن كل أعباء الحياة العائلية[٢١] . ولم تكن هذه هى نظرة عامة الناس فحسب، بل شاركهم فيها الحكام. عندما تحمل إحدى زوجات السلطان، فإنه يركز كل آماله فى أن يكون المولود ذكراً يحيى به ذكره وينشرح له صدره . فإذا تم له ما يتمناه احتفل احتفالا كبيرا بالمولود، كما تكرم أم المولود فيعمل لها بشخاناه ودائر بيت زركش وغير ذلك من مظاهر التكريم التى تكلفه آلاف الدنانير مع استمرار الفرح سبعة أيام[٢٢] .

هذا فضلاً عن أن نظرة الرجل لها كانت على أساس أنها خاضعة له ومعاونة له فى عمله، فيتقدم عليها فى المجالس، وكثيراً ما يأكل وامرأته تخدمه بتقديم الطعام له ثم تأكل بعده، إلى جانب الأعباء الكثيرة الملقاة على عاتقها داخل المنزل [٢٣]. وحتى فى الريف، وإن كانت تبدو أكثر تحرراً، حيث كانت تسير غير محجبة، وكان يسمح لها بأن ترى خطيبها ولكن ليس على انفراد، إلا أن دورها فى الحياة ومسئولياتها كانت أكبر بكثير منها فى المدينة، ومع هذا فقد كانت منزلتها أقل من الرجل، فعندما يسير كانت تسير وراءه، وإن كان لدى الأسرة حمار فالرجل هو الذى يركبه بينما تسير المرأة خلفه[٢٤].

وحتى فى المجتمعات البدوية فقد انحدرت منزلة المرأة إلى حد الهوان،إذ كانوا يعاشرون النساء دون زواج، ولا يورثون البنات، وهذا ما لم يأت به شرع أو دين، ويستنكر "السبكى" وهو أحد كبار فقهاء ذلك العصر أشد الاستنكار ما كان يفعله أمراء العرب فى عهده فيقول : "وكثير من العرب لا يتزوجون المرأة بعقد شرعى، وإنما يأخذونها باليد وربما كانت فى عصمة واحد فنزل عليها أمير غيره، واستأذن أباها، وأخذها من زوجها، فهيهات قل لى : أى ولد حلال ينتج من هذه ؟ لا جرم أنهم لا يلدون إلا فاجرا، ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات، ولا يمنعون الزنى فى الجوارى بل جواريهم يتظاهرون بالزنى مع عبيدهم، كل ذلك من الموبقات العظيمة" وهو بهذه العبارة يفسر لنا ظاهرة زواج الشغار، وهو أن يتبادل الرجلان كل منهما ابنة الآخر

أو أخته أو موليته بدون مهر، وكانت هذه هى عادة البدو قبل الإسلام . والحقيقة أن هذا الأمر غير مستبعد فى ذلك العصر الذى انتشرت فيه كثير من الأمراض الخلقية والاجتماعية (٢٥) .

وإذا رحنا نتلمس صورة المرأة ومكانتها الاجتماعية فى الأدب، والأدب كما سبق أن أشرنا هو مرآة الشعوب، وجدنا ما يعكس الصورة الأخيرة ويؤكدها من أنها مجرد أداة للمتعة، وأن دورها ينبغى ألا يتعدى دور ربة المنزل القائمة على تدبير شئون المأكل وتربية الأطفال الصغار، والرجل ينبغى دائما أن يكون هو المسيطر، والمرأة ينبغى دائمًا أن تكون ظلاً للرجل وتابعًا له، فهى لا تزيد عن كونها متاعًا له وحرثًا(٢٦) .

ولذا لا غرابة أن نسمع فى أدب العصر أن هناك من كان يكره إنجاب البنات وإذا بشر بإحداهن ظل وجهه مسودا . وهذا ما يعكسه لنا "الوراق" كأحد شعراء ذلك العصر فى قوله :

رزقت بنتًا ليتها لم تكن   فى ليلة كالدهر قضيتها

فقيل : ما سميتها قلت لو   مكنت منها كنت سممتها

وكذلك نرى "ابن الوردى" يكره إنجاب البنات خشية من المفاسد التى عمت فقال فى إحدى قصائده يعبر عن ذلك :

يارب أشكو من بناتى كثرة   وأبو البنات يخاف ثوب العار

والله يرزقنى بهن وإنما   أرجو لهن الستر من ستار

ثم يدعو على بناته بالموت وفى اعتقاده أن جوار الله تعالى خير من جواره فيقول:

فرزقن عن قرب جميل جوار من   شتان بين جواره وجوارى

أترى أسر بدفن بنت قائلا   الله جارك إن دمعى جارى (٢٧)

وطبيعى بعد ذلك أن نسمع عن ضيق بعض الرجال بزوجاتهم، "فالبوصيرى" فى وصفه لزوجته يذكر بأنه قد ضاق بهذه الزوجة المشاكسة، كما أن "ابن دانيال" يضيق هو الآخر بزوجته الدميمة النكدة ويصفها بقوله :

زوجـــة فـى النقـــار ديـــك ولكن لها فى النساء صورة قرد

كما يرى فيها الشاعر "القيراطى" أنها جبلت على النكران، لا تركن إلى خليل، وهى فى السخط هلاك مسلط على الزوج، وفى الرضى فم مفتوح لا يشبع. وإذا كانت هذه هى الصورة للمرأة الحرة كما عرضها أدب ذلك العصر، وهى صورة كما ترى بالغة السوء لكن مما لا ريب فيه أن هذه الصورة الساخرة قد استمدها الشعراء من واقع مجتمعهم، ثم أضفوا عليها من روحهم الفكهة ما جعل لها هذه الحيوية (٢٨) .

أثر الجوارى فى مكانة المرأة

يقصد بالجوارى كل امرأة أخذت أسيرة فى الحرب، أو كل امرأة نقلت قسراً من بلاد العدو، على شريطة أن تكون غير مسلمة، أو هى التى تلدها أمة مملوكة، ويكون أبوها عبداً ، مسلمة كانت أو غير مسلمة، أو هى التى تؤخذ من أسواق الرقيق، على ألا تكون أصلاً من دار الإسلام سواء أكانت مسلمة أم كتابية .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الرق قبل الإسلام كان دعامة ترتكز عليها جميع نواحى الحياة الاقتصادية فى معظم أمم العالم، وتحت تأثير هذه الظروف أقر الإسلام الرق، ولكن فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه، عن طريق تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه، وقصره على رق الوراثة باستثناء أولاد الجارية من مولاها، ورق الحرب، ووضع الإسلام القواعد التى تكفل القضاء على نظام الرق تدريجيا(٢٩) .

وفي العصر الذى نحن بصدده كانت الجوارى تشكلن كثرة عددية فى المجتمع المصرى والشامى، بحيث لا نغالى إذا قلنا أنه قل أن تجد داراً إلا وبها بعض الجوارى بدليل وجود ضامن عليه مال مقرر يأخذه من كل من رد عليه عبده أو أمته إذا هربوا تمرداً أو عناداً، بل كان يتعدى حتى يأخذ من يجده من العبيد والإماء قد مضى لمولاه فى حاجة، ويحبسه عنده حتى يصالحه مولاه على مال يدفعه إليه، كذلك لم نسمع عن واحد من كبار رجال الدولة سواء من طبقة العسكريين أم الفقهاء وحتى التجار إلا وكان لديه عدد كبير من الجوارى يتناسب مع مكانته الاجتماعية ومركزه وثروته (٣٠) .

وعن مصادر الحصول على الجوارى فقد تعددت ما بين سبايا الحرب التى تم شنها ضد الفرنج الذين احتلوا جزءاً عزيزاً من الأرض العربية، وكونوا لهم مستوطنات فى كل من الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس . أو من سبايا الحرب التى تمت لتأمين أطراف الدولة العربية الإسلامية فى مصر والشام من المغيرين عليها أو من أعدائها سواء فى بلاد النوبة، المسيحية حتى ذلك الحين، أو فى المعاقل الصليبية فى قبرص ورودس، كذلك كانت بلاد الأرمن فى آسيا الصغرى من المصادر الهامة للحصول على الجوارى، ذلك لأنهم كانوا قد تحالفوا مع الصليبيين منذ قدومهم إلى بلاد الشام، وكانوا لهم بمثابة قوات مساعدة مهدت لهم الاستيلاء على كثير من الحصون والقلاع والمدن الشامية، فضلاً عن أنهم حالفوا العدو الثانى وهم المغول، بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن القاعدة فى الحصول على الجوارى هى شراؤهن من أسواق الرقيق، فقد كانت بمصر والشام أسواق للرقيق، ودلالون لبيع الرقيق بنوعيه الأبيض والأسود، وهم الذين يجلبون الرقيق من مناطق مختلفة مثل بلاد الروم والهند (٣١) .

ومن الملاحظ أن الجوارى عشن فى قصور السلاطين والأمراء وعلية القوم وغيرهم ممن مكنتهم ظروفهم الاجتماعية وأحوالهم الاقتصادية جزءا أساسيا من الحريم، بل وكأنهن ضمن أفراد عائلة أسيادهن، يشاركن فى شتى المناسبات الخاصة

بعائلة السيد من أفراح وأحزان وخلافه، كما أنه قد طبق عليهن من قواعد العزلة والحجاب ما يطبق بالضبط على باقى النساء من الأحرار اللائى فى الحريم، والفئة الوحيدة التى أبيح لها غشيان الحريم هى فئة الطواشية أو الخصيان بحكم ما لهم من وضع اجتماعى (٣٢) .

وكثيراً ما تطالعنا المصادر المعاصرة من أن أحد السلاطين تزوج إحدى جواريه، فارتفعت بذلك إلى منزلة "خوند الكبرى" فى القصر السلطانى، أى الزوجة الأثيرة لدى السلطان وذات الجاه والمكانة الكبرى(٣٣) . إلى جانب ما تشير إليه بعض وثائق الوقف من حرص السلاطين وكبار الأمراء على توفير مورد ثابت للرزق لجواريهم عقب وفاتهم، مثلهن فى هذا مثل ذرية هؤلاء السلاطين والأمراء وعلية القوم، بل وعامة الناس أيضا(٣٤) .

ومن الطبيعى أن يكون لهؤلاء الجوارى أثرهن الواضح فى الحياة العائلية ومكانة المرأة فى المجتمع المصرى والشامى فى ذلك العصر . فمهما كان تقدير الرجل للمرأة فى ذلك العصر فإن هذا التقدير لم يصل إلى الدرجة التى أصبح عليها الآن فى عصرنا الحالى . والسبب فى هذا راجع إلى نظرة المعاصرين آنذاك إلى المرأة على أساس أنها خلقت للمتعة الجسدية ليس إلا، وانعكست هذه النظرة بوضوح فى شغف الناس باقتناء الجوارى الحسان ودفع الأموال الطائلة فى شرائهن. ولا نشك أنه حدث نوع من الفتور على الأقل فى العلاقات بين الرجل

والمرأة فى ذلك العصر، إما بسبب ما كان يخصصه السيد لجواريه من أموال وعقارات أو مانلنه من حظوة لديه . وليس أدل على هذا مما يرويه أحد المعاصرين من أنه نودى من قبل السلطان بأن أحداً لا يشكو أحداً للسلطان، إلا بعد أن يرفع أمره لأحد القضاة، فإذا لم ينصفه يتقدم بشكواه بعد ذلك للسلطان، وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان، حتى أن امرأة شكت زوجها للسلطان، لأجل أنه وطئ جارية فى ملكه، فما طاقت زوجته الغيرة، فشكته للسلطات بقصة(٣٥) .

وعن أثر الجواري في العلاقات الزوجية يقول الرحالة "بيروطافور" إن المسلم يؤثر الزواج من مسيحية – يقصد بذلك الجواري – دون مهر على الاقتران بمسلمة مهما كانت ضخامة مهرها، لاسيما إذا كانت مسلمة حرة . كما أن كبار رجال الدولة وموظفيها كانوا يفضلون في ذلك العصر الزواج من الجواري، أضف إلى ذلك ما سبق أن أشرنا إليه من قول رحالة آخر عن تغيب بعض النساء عن منازلهن في أوقات كثيرة من النهار، ومع ذلك قلما يتعرضن للوم أزواجهن، وربما كان السبب في ذلك قيام الجواري بكل الأعباء المنزلية إلى جانب تلبية حاجات الزوج(٣٦) .

كما يعكس لنا أدب ذلك العصر بعضًا من الجوانب التي تدل على مدى ذلك الفتور في العلاقات في بعض الأحيان، حيث يتضح لنا من أشعار الشعراء المعاصرين أن صورة المرأة المحبوبة كمثال للمرأة الحرة والتي شاع ذكرها في التراث الأدبي، قد تغيرت إلى صورة الجارية الحسناء التي تتقن فن الحب، بحيث نقف في هذا الأدب على كثير من أمثال هذه الصورة التي يرد في ثنايا أسماء كثير من الجواري التي شاعت آنذاك مثل "وردة" و"حدق" و"حكم الهوى" و "نسيم" و "اشتياق" و "هيفاء" وغيرها. وطبيعي بعد ذلك أن نسمع عن ضيق بعض الرجال بزوجاتهم (٣٧) .

وكما ضاق بعض الرجال بزوجاتهم، فإننا نسمع في المصادرة المعاصرة عن أن كثيراً من الرجال قد أتلفوا أموالهم على محظياتهم من الجواري، بما سبب ضيق زوجاتهم من سوء تصرفهم هذا، وتكرار الشكوى بل مر الشكوى من تصرفهم هذا(٣٨) .

كذلك يبدو لنا أن نظرة المعاصرين للمرأة والتي قامت على أساس أنها خلقت للمتعة والاستغلال ليس إلا، قد ازدادت رسوخًا بسبب كثرة هؤلاء الجواري وما قدمنه من متعة جسدية بما يؤكد هذه النظرة . هذا فضلاً عن أن كثرة هؤلاء الجواري قد ساعدت على انتشار الدعارة وبيوتها في كل من مصر والشام بشكل لم يسبق له مثيل، وتيسر الحصول على اللذة والمتعة الجنسية لكل من يطلبها، بسبب وجود أعداد هائلة

من الجوارى من الفرنج والأرمن بوجه خاص، مما حدا ببعض السلاطين إلى محاربة هذا المرض الاجتماعى الخطير الذى استشرى آنذاك[٣٩] . وامتد أثره ليؤثر على المرأة الحرة ومكانتها، حيث تشير بعض المصادر إلى ما عرف باسم "ضمان المغانى" والذى يقول عنه أحد المعاصرين إنه عبارة عن أخذ مال من النساء الباغيات، وذلك لو خرجت أجل امرأة من النساء تقصد البغاء، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة، وأقامت بما يلزمها من القدر الذى يتعين عليها، لما قدر أكبر من فى الحكم بمنعها من البغاء، وعمل الفاحشة وكان يحصل من ذلك لنساء أعيان العصر، وبناتهم، غاية الفساد من ذلك، فأبطل السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذه الفاحشة العظيمة من البلاد[٤٠] . بينما يذكر مؤرخ آخر أن هذا الوباء انتشر فى كل الأنحاء حتى فى الريف حيث كان للمغانى حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهراء ما يقبح ذكره، ومن اجتاز بها خطأ ألزم بأن يزنى بخاطئة، فإن لم يفعل فدى نفسه بشىء من المال [٤١].

ومن الواضح أيضًا أنه نتيجة لكثرة أعداد الجوارى فى ذلك العصر أن ازداد زهد الرجل فى المرأة الحرة، وقابل ذلك زهد المرأة فى الرجل، أو بحثها عن طريق آخر تشبع بها نهمها الجنسى مما أدى إلى انتشار ظاهرة الشذوذ الجنسى بين النساء، وخير دليل على ذلك ما سجله "ابن دانيال" فى كثير من أشعاره، ولكن القلم يعف عن كتابة شىء من هذه الأشعار التى تفيض بما فيها من عهر وتهتك. كذلك ربما كان من العوامل المشجعة على رواج هذه الظاهرة بين النساء وجود مجتمعات نسائية قائمة بذاتها، تمثلت فى وجود كثير من الأديرة الخاصة بالنساء، وبعض الخوانق أو الربط أو الزوايا . فالمقريزى فى حديثه عن حارة الروم كإحدى حارات القاهرة الشهيرة إلى وقتنا الحالى، يذكر ديرًا سماه "دير البنات" قال عنه أنه بحارة الروم بالقاهرة عامر بالنساء المترهبات . كما يذكر فى حديثه عن "رباط البغدادية" والذى تم بناؤه سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٣م يقول : "وأدركنا هذا الرباط وتودع فيه النساء اللائى طلقن أو هجرن، صيانة لهن .. لما كان فيه من شدة الضبط، وغاية الاحتراز، والمواظبة على وظائف

العبادات حتى أن خادمة الفقيرات به كانت لا تمكن أحداً من استعمال إبريق ببزبوز، وتؤدب من خرج عن الطريق بما تراه[٤٢] " .

وقد ألمح إلى هذه الظاهرة، ظاهرة الشذوذ الجنسى، أحد أدباء ذلك العصر، فى واحدة من أشهر بلاليقه، ولكن فى أسلوب لا يخدش حياء أحد، وهو "ابن الطفال" حيث يقول :

فى ذى المدرسة	**جماعة نسا**
إذا أمسى المسا	**ترى فرقعة**
نسا ذا الزمان	**عجيب يا فلان**
يكونوا ثمان	**يصيروا أربعة** [٤٣]

وأخيراً يجب أن نشير إلى أن الجوارى قد أثرن بشكل آخر فى مكانة المرأة الحرة فى مجتمع ذلك الزمان ونظرة الرجل إليها، إذ هناك من الدلائل الأدبية ما يشير إلى أن الجوارى قد كان لهن أثر كبير فى انتشار تعاطى بعض المخدرات فى المجتمعات النسائية، وربما دل على ذلك ما نراه من قول "ابن الوردى" فى وصفه مليحة مسطولة :

مليحة مسطولة	**إن لمتها فيما جرى**
تقول كل ظبية	**ترعى الحشيش الأخضرا** [٤٤]

ولعلنا لا نغالى إذا قلنا أن الجوارى قد أثرن حتى فى ذوق الرجل المصرى والشامى تأثيراً واضحاً، فلم يعد الشاعر الشامى والمصرى يتغزل فى الجمال الأنثوى الذى تغزل به العرب، بل أصبح الجمال التركى والمغولى هو ذوق العصر ومثار إعجاب الشعراء . بينما أصبح الجمال العربى مرفوضاً إلا من الشعراء الذين ينحدرون من أصول عربية، وهذا ما يظهر بوضوح فى أشعار كثير من الشعراء الذين عاصروا تلك الحقبة[٤٥] .

وإذا كان الإكثار من اقتناء الجوارى قد أثر بشكل أو بآخر فى مكانة المرأة الحرة ونظرة الناس لها، فقد كانت الحروب الصليبية نفسها من العوامل التى تركت أثراً فى مكانة المرأة كذلك، فالكيان الفرنجى "الصليبى" أينما وجد فى بلاد الشام، قد احتوى على مظاهر الانحلال الخلقى، من ذلك أن مدينة عكا الساحلية احتوت على حى للدعارة عرف بالحى الأحمر فى ذلك العصر (٤٦).

ولعل خير ما يؤكد لنا ذلك هو ما يرويه الرحالة المغربى "ابن جبير" الذى زار البلاد فى ذلك العصر، من أنه ندم أشد الندم على دخوله مدناً مثل عكا وصور وكانت تحت حكم الفرنج، لأن بها جميع المحرمات مما لا يقع تحت حصر أو تعداد (٤٧) . كما أن الكثير من المصادر العربية واللاتينية تؤكد أن أبناء الغرب الأوروبى منذ الحملة الصليبية الأولى، كانوا يصحبون معهم فى معسكراتهم النساء البواغى للترفيه عن الجنود وبأعداد كبيرة . كما كانت تأتى إليهم وباستمرار السفن محملة بهؤلاء النسوة اللائى وهبن أنفسهن لإسعاد الفرنج الغرباء فى بلاد الشام (٤٨) .

بل أكثر من هذا ما يرويه لنا "القزوينى" فى حديثه عن مدينة اللاذقية تحت حكم الفرنج من أن "المحتسب يجمع الفواجر والغرباء المؤثرين للفجور فى حلقته، وينادى على واحدة ويتزايدون، حتى إذا وقف سلمها إلى صاحبها، مع ختم المطران . وهو يأخذها إلى الفنادق، فإذا وجد فى الطريق إنساناً لم يكن معه ختم المطران ألزمه بجناية، وظل الحال بها هكذا حتى كانت سنة أربع وثمانين وخمسمائة حيث استرجعها صلاح الدين يوسف وهى الآن فى يد المسلمين" (٤٩) .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل أكثر من هذا ما يرويه أحد المؤرخين اللاتين من أن سكان بيت المقدس الفرنج المستوطنين، وحتى الأغنياء منهم كانوا يقدمون أخواتهم وبناتهم وحتى زوجاتهم من أجل متعة زوار المدينة فى سبيل الحصول على المال (٥٠)، ولقد زار عدد لا بأس به من أهالى المدن الشامية المدن التى خضعت لحكم الفرنج، وترددوا على أمثال هؤلاء النسوة واللائى اشتهرن بالجمال الذى شد الكثير من

الرجـال إليـهن، مما أثر بشكل أو بآخـر فى عـلاقـة الرجل بالمرأة ومكانتـهـا فى ذلك العصر، بل ومما ساعد على رسوخ تلك النظرة التى نظر بها الرجل إليها (٥١) .

حقيقة أن ذلك العصر وهو عصر الحروب الصليبية فى مصر والشام، امتاز بمسحة براقة من الصلاح والتقوى، والتنافس على إقامة المنشآت الدينية المختلفة، ولكن هذه المسحة البراقة كانت تخفى وراءها انحلالاً خلقيًا يثير الاشمئزاز، ولسنا فى حاجة للخوض فى هذا المجـال، لكن يكفى أن نشيـر إلى كثـرة عدد الغلمان من جنسيـات مـختلفـة، سـواء من الأتراك أم من الفـرنج، والذين وجـدوا بكثـرة فى ذلك العـصـر فى البلاد. مما ساعد على انتشار الشذوذ الجنسى بين الذكور، والذى تأباه جميع الأديـان السماوية جميعًا، والذى ساعدت عليه حالة الحروب الطويلة فضلاً عن عدم تأصـل الشعور الدينى، ونزع شعاره متى رأى الشواذ مغنمًا لهم، أو فاحشة يأتونها . ومن الطبيعى أن يجد هؤلاء الفرصة سانحة لهم لممارسة نشاطهم وسط ذلك المجتمع الـذى ضـعـفت فيـه القيـم الدينيـة، مما سـاعد على اهتـزاز صـورة ومكانة المرأة بشكـل أو بآخر(٥٢) .

الهوامش :

(١) على السيد على : القدس فى العصر المملوكى، القاهرة ١٩٨٦، ص ٢٧٤ .

(٢) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك، وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بوليس راويس، باريس ١٨٩٤م، ص ١٢١ ؛ د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٢٨ .

(٣) ابن شاهنشاه الأيوبى " المنصور محمد بن تقى الدين عمر" : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٢٢٧ ؛ على السيد على: الحياة الثقافية فى المدينة المنورة، القاهرة ١٩٩٤ ؛ ص ١٤٢ ؛ محمد عيسى صالحية، من وثائق الحرم القدسى الشريف، حولية كلية الآداب بجامعة الكويت، الحولية السادسة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥، ص ١٠٤ : محمد محمد أمين : وثائق من عصر سلاطين المماليك القاهرة بدون تاريخ، ص ٣٥٦ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، جـ١٢، ص ٤، د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ١٣١ .

(٥) ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق أوليرخ هارمان، القاهرة ١٩٦١، ص ٤٤ .

(٦) المقريزى : المقفى الكبير، جـ٧، ص ١٦٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٦٤ ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م، ص ١١٠-١١ .

(٧) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك فى مصر، ١٩٦٧، جـ ٢، ص ٥٦-٥٧ .

(٨) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتى، جامعة برنستون ١٩٣٩، ص ٧٠-٧١ .

(٩) المصدر السابق نفسه، ص ١١٨-١٣١، ص ٨٢-١٨٦ .

(١٠) ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان، تحقيق د. حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٢، جـ١، ص ٢٥٥ .

(١١) كامل جميل العسلى : وثائق مقدسية تاريخية، عمان ١٩٨٥، جـ١، ص ٣١-٣٥-٤٢-٦٠ : محمد محمد أمين : وثائق من عصر سلاطين المماليك، ص ٣٥٣-٣٥٩ ؛ محمد عيسى صالحية : نفسه، ص ٩٨-١٠٤ .

(١٢) كامل جميل العسلى : وثائق مقدسية، جـ١، ص ٢٦٠-٢٦٥ ؛ د. على عبد الواحد وافى : الحرية فى الإسلام، دار المعارف، ١٩٨٦، ص ٩-١٩ .

(١٣) كامل جميل العسلى : نفسه، جـ٢، ص ١٤٢ .

(١٤) The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Desrt and Arabia Felix, London, 1863, pp. 13-14 .

(١٥) Treatise on the Holy Land, Trans . from the Italian By. Fr. Theophilus Bellorini, Jerusalem 1948, p. 205 .

(١٦) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٣٢ Schefer : Voyage du Magnifque, Paris 1869, P. 33 .

(١٧) Frescobaldi, Gucci and Sigoli : A visit to the Holy places, Trans. From the Italian By, Theophilus Bellorini, Jerusalem 1948 . p. 46 .

(١٨) Prescott : Once to Sinai, The further Pilgrimage of Frair Felix Fabri, London 1957, p. 155 .

(١٩) د. حسن حبشى : رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، القاهرة ١٩٦٨، ص ٦٥؛ د. على السيد على : القاهرة فى عيون الرحالة الأوروبيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، مجلة فكر، أكتوبر ١٩٨٨، العدد ١٣، ص ٨٣ ؛

Adler "Alkan" : Jewish Travellers, Ist, Published, London 1930, p. 228

(٢٠) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك، القاهرة ١٩٧٤، ص ٣٩١ ؛ سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ١١٩ .

(٢١) Leses, Robinson : Village Life in Palestine, London 1905, pp. 108-113 .

(٢٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق د. زبيدة محمد عطا، الرياض ١٩٨٢، جـ٩، ص ٣٠٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١١٩ ؛ سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ١٣٠ .

(٢٣) لجنة من الأدباء : لبنان مباحث علمية واجتماعية، ص ١٤٧ ؛ على السيد على : القدس فى العصر المملوكى القاهرة ١٩٨٦، ص ٢٧٣ .

(٢٤) Lees : Op. Cit. pp, 120-197 .

(٢٥) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربى بمصر، ١٩٤٨م، ص ٥٥ ؛ أحمد خيرت : مركز المرأة فى الإسلام، دار المعارف ١٩٨٣، ص ١٣ .

(٢٦) د. فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى فى أدب المملوكى الأول، القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٩٦-٢٩٨ .

(٢٧) المرجع السابق : نفسه، ص ٢٩٨ ؛ على السيد على : الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة ١٩٨٨، ص ٣٩-٤٠ .

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٣٠٠-٣٠٤ ؛ على السيد على : نفسه، ص ٣٧-٣٨ .

(٢٩) على السيد على : الجوارى، ص ١ -١٥ وما بها من مصادر ومراجع .

(٣٠) المقريزى : السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٦٤٢-٥٦، جـ٢، قسم ٢، ص ٥٢٨ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان، جـ١، ص ٧٧ ؛ على السيد على : نفسه، ص ١٥-١٦ .

(٣١) المقريزى : السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٦٣٠ ؛ عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغورى، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٨ .

(٣٢) المقريزى : نفسه ، جـ٢ ، قسم ٣ ، ص ٥٩٥ ؛ سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ١٣٤ .

(٣٣) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص ٤٢٥-٤٢٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم جـ١٦ ، ص ٢٩٢ .

(٣٤) د. عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة وقف مسرور ابن عبد الله الشبلى الجمدار ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٣٩-١٤٠ .

(٣٥) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص ٦٣ ، محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ٩٤ ؛ على السيد على : الجوارى ، ص ٣٥-٣٦ .

(٣٦) حسن حبشى : رحلة طافور ، ص ٦٥-٦٧ ؛ على السيد على : الجوارى ، ص ٢٧ . (٣٧)

(٣٧) فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى ، ص ٣٠٠-٣٠١ ؛ على السيد على : الجوارى ، ص ٣٧ .

(٣٨) ابن الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٢ ، ص ٤٣١ .

(٣٩) ابن أيبك : الدر الفاخر ، ص ٢٩٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ، قسم ٢ ، ص ٦٠٠ .

(٤٠) بن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ٤٨٦ .

(٤١) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ، ص ١٢٧ .

(٤٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٤٢٤ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٢ ، ص ١٢٤ ؛ على السيد على، الجوارى ، ص ٤٥-٤٦ .

(٤٣) فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى ، ص ٣٥٩-٣٦٠ ؛ على السيد على : الجوارى ، ص ٥٦ .

(٤٤) فوزى محمد أمين : نفسه ، ص ٣٥٢-٣٥٣ . نقلا عن روضة الآداب ، ص ٢٥٥ .

(٤٥) فوزى محمد أمين : نفسه ، ص ٣٠٩ ؛ على السيد على : الجوارى ، ص ٥٦ .

(٤٦) براور : عالم الصليبيين ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ؛ ود. محمد خليفة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ، ص ٢٢١ .

(٤٧) ابن جبير : الرحلة ، نشر دار صادر بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٨٠ .

(٤٨) العماد الأصفهانى : الفتح القسى في الفتح القدسى ، القاهرة ١٩٠٣م ، ص ٣٤٧-٣٤٩ ؛ زكى النقاش العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ٣٣ ؛ Jacques de Vitry in P.P.T.S. vol V, p. 64 .

(٤٩) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٩ ؛ على السيد على: القدس في العصر المملوكى ، ص ١٦١ .

(٥٠) Zoe , Oldenbourg : The Crusades, New York 1966 . p. 519 .

(٥١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٦٦-١٦٧ ، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٤٦٩ ؛ د. نقولا زيادة : رواد الشرق العربى في العصور الوسطى ، بيت المقدس ، ١٩٤٣ ، ص ١٦١ .

(٥٢) محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية : وأثرها في الأدب العربى ، ص ٤٠ ؛ على السيد على: المجتمع المسيحى في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة لم تنشر ، ص ١١٨-١٢١ ؛

Michaud : History of the Crusades, London 1949 vol. II , p. 191 .

الفصل الثانى

المرأة وعنايتها بزينتها وملابسها

لعل أول ما يلفت النظر فى نساء ذلك العصر فى مصر والشام، أن المرأة لم تهمل العناية بنفسها وجسدها وإبراز محاسنها، نظراً لما عرف فى ذلك العصر من أنواع الزينة من طلاء الأظافر و"الوشم" الذى اعتادت كثير من النساء أن يزين به أجزاء مختلفة من أبدانهن(١). وتجدر الإشارة إلى أن تلك العناية لم تكن قاصرة على النساء المسلمات فحسب، بل شاركت المرأة المسيحية فى ذلك بصفة خاصة، حيث كانت تخرج إلى الكنيسة فى أبهى زينتها، ولعل هذا ما دفع بعض رجال الدين المسيحيين فى ذلك العصر إلى محاربة ذلك، عن طريق عقد المجامع الدينية الخاصة لإثارة هذه المشكلة(٢).

لكن من الواضح أن دعوة أمثال هؤلاء الرجال سواء من رجال الدين المسيحيين أم المسلمين ذهبت أدراج الرياح، بدليل ما قاله ابن ظهيرة وهو أحد علماء القرن العاشر الهجرى، السادس عشر للميلاد أن نساء مصر أرق نساء الدنيا طبعاً وأحلاهن صورة(٣). وبدليل ما رواه الرحالة "بيروطافور" من أنه شاهد عددا كبيرا من العبيد السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشر يسيرون فى شوارع القاهرة وهم يصيحون: "من يريد الزيانة ؟؟" ولما استفسر عن حقيقة ذلك، قيل له إنهم يقومون بتحفيف النساء اللاتى لا يرغبن إتمام هذه العملية فى الحمامات العامة، بالرغم من أن هذه العادة كانت محل استهجان بعض الفقهاء المسلمين المعاصرين(٤).

وما يذكره الرحالة اليهودى موشلام بن مناحم الفولتيرى من أن النساء فى هذه البلاد اعتدن أن يزين أجسامهن بالرسوم المختلفة، والتى لا يمكن إزالتها من على الجلد لمدة ستة أشهر، على الرغم من أنهن يذهبن كثيراً إلى الحمامات العامة، وهو يقصد بذلك عملية "الوشم"(٥). هذا إلى جانب ما يشير إليه بعض الرحالة من أن النساء فى ذلك العصر كن يقمن بتخضيب أيديهن وأرجلهن بالحناء، كما اعتدن طلاء أظافرهن بطلاء أحمر اللون(٦).

وجدير بالذكر أيضًا أنه عند خروج إحداهن فقد كانت تتعطر وتلبس من الحلى كل ما تقدر عليه . ومن الحلى التى كانت تستخدمها تلك القلائد المصنوعة من العنبر والتى سميت "بالعنبرية"(٧). هذا إلى جانب ما تشير إليه بعض الوثائق من أن كثيراً من النساء اعتدن أن يزين أعناقهن بقلائد أو سلاسل مصنوعة من البللور أو الحجارة الكريمة، كالعقيق أو الجزع أو الذهب أو اللؤلؤ أو الخرز . فضلا عن نوع من الزينة التى كانت تلبس مع الطواقى أو العصائب وتسمى "الكلابند"، ولعلها مشتقة من "الكلبدون" التى انتشرت فى العصر العباسى، وهى مثل الطرحة التى تلبس فوق الرأس، وتكون من مطروق الذهب والفضة، وإن كانت "الكلبندات" كلمة فارسية معناها لباس الرقبة أو الكوفية التى تلبسها النساء على رؤوسهن وتربط تحت الذقن، وتطلق أيضا على حلى ذهبية تلبس حول الرقبة(٨).

ومن ناحية أخرى فقد استخدمت نساء ذلك العصر أنواعًا من السوارات لتزيين اليد، كانت تلك السوارات زرقاء اللون ومعلق بها حبات من اللؤلؤ، بلغت فى بعض الأحيان أربع حبات. كما نلاحظ أن لها أشكالاً مختلفة، ففى إحدى الوثائق جاء وصف السوار بأنه من الذهب وعلى هيئة العقرب، بينما جاء فى وثيقة أخرى وصف سوار آخر بأنه على شكل الدلو. أما أدوات زينة الأصابع فقد اقتصرت على الخواتم بأنواعها وأشكالها المختلفة، وكان معظمها مصنوعًا من الذهب أو الفضة، وقد تكون سدحًا أى لافص فيها ومقتصرة على الذهب، أو تضاف لها الفصوص الحمراء أو الزرقاء البللورية أو فصوص العقيق(٩).

هذا بالإضافة إلى مواد الطيب مثل العنبر وغيره ومواد الكحل للعين بمكاحلها الزجاجية والتى كانت على هيئة قلبين، وفى إحدى الوثائق كانت المكحلة من مادة الفخار، إلى جانب العطريات التى يحفظ فيها العطر، والمباخر ذات الأبراج، والأمشاط لتزجيج الشعر، والمرايا بحاملها النحاس(١٠).

إلى جانب ما يذكره أحد الرحالة الأوروبيين الذين زاروا البلاد فى ذلك العصر، من أن النساء فى مصر والشام كن يرتدين السراويل التى تزين أطرافها الأحجار الكريمة واللؤلؤ، كما يضعن فى آذانهن الأفراط الذهبية والفضية المرصعة بالأحجار الكريمة واللآلى، إلى جانب أن العديد من النساء كن يثقبن آذانهن ما بين عشرة وثمانية ثقوب، ويثبتن فيها اللآلئ المختلفة، وبذلك يمكنك التعرف على مستوى الواحدة منهن الاقتصادى والاجتماعى من خلال أذنيها(١١). هذا عدا الخلاخيل التى توضع فوق السراويل حتى تظهر للعيان، وقد تضرب الواحدة منهن برجلها فى الغالب حتى يسمع لها حس، هذه الخلاخيل غالبا ما كانت تصنع من الذهب والفضة، وتحلى بالجواهر الثمينة(١٢).

ونحن إذا رحنا نتلمس فى أدب ذلك العصر مبلغ عناية المرأة بزينتها، لوقفنا على مبلغ إسراف المرأة فى زينتها وأنها بالغت فيما تبديه من فنونها، حتى أن السلطة كانت تضطر بين الفينة والفينة إلى أمر النساء بلزوم بيوتهن، أو وضع معايير محددة لما يجب أن يرتدين من ثياب وعصائب وأدوات زينة(١٣).

ويصور لنا ابن الأخوة مدى إسراف النساء فى الزينة بقوله : "والنساء فى هذا المقام أشد تهالكًا من الرجال، ولهن محدثات من المنكر أحدثها كثرة الإرفاء والإتراف، وأهمها إنكارها حتى سرت فى الأوساط والأطراف. فقد أحدثن الآن من الملابس مالا يخطر للشيطان فى حساب، وتلك لباس الشهرة التى لا يستتر منها إسبال مرط ولا أدنى جلباب، ومن جملتها أنهن يعتصبن عصائب كأمثال الأسنمة ويخرجن من جهارة اشكالها فى الصورة المعلمة"(١٤).

كما يعطينا شعر هذه الحقبة إشارات خاطفة إلى هذه الزينة، من حلى وأساور، وخواتم، وخلاخيل، واتخاذ بعضهن المناديل المزينة التى نقشت عليها أبيات من الشعر، فمما كان يكتب على المنديل قول "بهاء الدين بن النحاس":

ضاع منى خصر الحبيب نحولا فلهذا أضحى عليه أدور

لطفت خرقتى ودقت فجلت عن نظير كما حكتها الخصور

أكتم السر عن رقيب لهذا بى يخفى دموعه المهجور[١٥]

ويشير الشعراء إشارات خاطفة إلى بعض ما كان يتفنن فيه نساء ذلك العصر، من جعل شعورهن على هيئة خاصة، فقد كان منهن من تفرق شعرها فوق الجبين، وتضفره عدة ضفائر واضعة بعضها فوق بعض. وقد يرخى بعضهن هذه الضفائر خلفهن. كما كان بعضهن يسدلن خصلاً من الشعر على خدودهن تنساب هفافة على غير نظام، وكان بعضهن يجعلن هذه الخصلات تستدير حول صدغيه الحسان. وكان بعضهن يجعلن هذه الخصلات تستدير حول الخد على هيئة العقرب، لذلك كثر حديث الشعراء عن الشعر المعقرب، وعن عقارب الأصداغ التى تحمى ورد الخدود. كما أشار الشعراء إلى ما كانت تتخذه النساء من خضاب مختلف الألوان، من أحمر وأخضر[١٦].

ولم تكن تلك العناية بزينة المرأة قاصرة على بنات المدن، بل شاركت فيها المرأة الريفية بحسب مستواها الاقتصادى والاجتماعى، فقد كانت تتحلى بالأساور الفضية الضخمة فى معصمها، وفى أرجلها الخلاخيل، وفى أذنها بالتراكى الذهبية (حلق مستدير) وفى أصابعها بالخواتم والفضة. كما كانت تتحلى أيضا بالوشم[١٧].

أما عن ملابس النساء، ففى الحقيقة أن هذه الملابس تعددت وتطورت باستمرار بحيث يحتاج الحديث عنها إلى عدة مجلدات على حد قول أحد المؤرخين المعاصرين[١٨]. ومع هذا سنجمل الحديث بالشكل الذى يعطينا السمات العامة التى ميزت ملابس النساء فى ذلك العصر ومدى عناية المرأة بملابسها.

وأول ما يسترعى الانتباه فى ملابس النساء أنها تميزت بالاحتشام، وهو ما لفت أنظار بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا البلاد فى ذلك العصر. فالرحالة

"كازولا" يؤكد ذلك بقوله: لم أستطع أن أرى امرأة جميلة لأنهن يمشين ووجوهن مغطاة بحجاب سميك أو "الخمار" وهو عبارة عن برقع أسود شفاف يسمح للمرأة أن ترى الناس ولايرى أحد وجهها، أو "النقاب" أو "القناع" الذى يغطى الوجه ولاتبدو منه إلا العينان، ويكون شفافًا، أبيض اللون غالبًا، مطرزًا بحرير أسود أو له حاشية زرقاء أو زيتية اللون. ويرتدين من فوق رؤوسهن شيئًا يشبه الصندوق، يقصد بذلك القبعة أو غطاء الرأس الذى كن يقمن بصنعه يدويًا، وتتدلى منه عصابتان من القماش الأبيض الطويل تتدليان لأسفل[١٩]. أو "الطاقية" التى بلغ ارتفاعها حوالى ثلثى ذراع. لها قسم على شكل قباب مدورة أو مسطحة وتنسج من الصوف أو الحرير أو الجوخ بألوان مختلفة. لكن أكثرها شيوعًا اللون الأزرق[٢٠].

وجرت العادة أن ترتدى النساء المسلمات قمصانًا كانت ترى من تحت ملابسهن الفوقانية، من هذه القمصان ما عرف باسم "البهطلة" والقميص له فتحة عنق دائرية وبدون فتحة أمامية، وقد اختلفت أطواله باختلاف رغبات النساء فيه، وكانت أكمامه تتراوح بين الاتساع والضيق فالاتساع يوحى بالغنى، وقد خيطت قمصان النساء من الكتان أو القطن أو الحرير المشتهر الإسكندرانى، وألوانها بيضاء أو زرقاء أو "شمط" أى مختلطة بين الأزرق والأبيض، وبعض النساء كن يطرزن قمصانهم وبعضهم الآخر يلبسن أنواعًا من القمصان البندقية المكبوسة "أى البليسيه"[٢١]. كما أن بعض النساء كن يبالغن فى سعة القميص حتى أن الواحدة منهن تفصل القميص من اثنين وتسعين ذراعًا من البندقى الذى عرضه ثلاثة أو أربعة أذرع ونصف، مما دفع السلطات الحاكمة بإشهار النداء بعدم المبالغة فى ذلك وإلا تعرضت النساء لتقطيع أكمام تلك القمصان[٢٢].

وكان القميص يلبس مع "المئزر" وهو نوع من السراويل التى تصل إلى الركبتين، ويعتبر ثوبًا تحتانيًا، ومنه ما كانت تلفه المرأة حول وسطها وأرجلها ويغطى حتى أواسط الأرجل، ويغلب عليه اللون الأسود وهو أقصر من "الإزار" الذى هو عبارة

عن ملاءة متسعة فضفاضة من قماش غير مطرز، تلفها المرأة حول جسدها وكان "الإزار" بالنسبة للمسلمات أبيض اللون، بينما للمسيحيات يكون "الإزار" أزرق اللون واليهوديات أصفر اللون، والسامريات أحمر اللون، ويشد حول الإزار حزام عرف باسم "الزنار"(٢٣).

وفى الريف حل "الجلباب" محل "الإزار" والجلباب عبارة عن ثوب تغطى به المرأة صدرها وظهرها وجميع جسدها، بل وتلتحف به النساء من الرأس إلى القدمين حين يردن الخروج من منازلهن، وهو من ملابس المرأة الخارجية الفضفاضة(٢٤). كما نسمع أن بعضهن كن يرتدين "الحبرة" وهى عبارة عن لباس خارجى واسع مخطط، أو أزرق على الأغلب، وفى بعض المناطق هى عبارة عن "ملاءات" ملونة بأصفر وأحمر أو من اللون الأبيض فقط. وتضع على رأسها فى الأفراح والمناسبات السارة نوعًا من "العصائب" تعلق بها سلاسل معدنية، تعرف باسم "شنبر" وكانت المتزوجات يتلفعن به ويربطنه من الوراء، أما الأرامل فكن يعصبن عليه المناديل وخاصة فى بلاد الشام(٢٥).

أما ملابس البدو فى بلاد الشام فلعل أهمها "البت" المصنوع من الخز الأخضر تلتف به المرأة بدلاً من "الملاءة" أو "الإزار" أو "الجلباب"، فيغطى جميع جسدها(٢٦). وفى مصر كان للمرأة البدوية زيها الخاص المشابه لزى أختها فى بلاد الشام، ولكنه تميز بأكمامه التى اشتهرت بالضيق(٢٧).

ومن أكثر الملابس النسائية انتشاراً فى ذلك العصر "القباء" إذ لا تخلو منه وثيقة من وثائق الحصر، وهو نوع من الرداء المحكم المشابه للقفطان، يصل فى طوله إلى منتصف عضلة الساق، مشقوق فى مقدمته ومغلق عند الصدر، وقد لبسته النساء والرجال وكان ينسج من القطن أو الصوف أو الحرير، وأما ألوانه فالأبيض وهو الأكثر شيوعًا، وأحيانًا يكون اللون الأزرق أو الأخضر أو الأحمر وهذا "القباء" كان يتم صنعه محليا من خامات محلية، وبعضه الآخر كان يتم من قماش مستورد من قبرص أو بلاد الروم، والبعض الآخر كان يتم تزيينه بفرو سنجاب قبرصى(٢٨).

كذلك كانت "الغلالة" بكسر الغين من أكثر الملابس انتشارًا فى ذلك العصر، ويقصد بها الملابس الحريرية الرقيقة الداخلية، أو المصنوعة من المنسوجات الرقيقة(٢). أضف إلى ذلك ملابس الرأس التى كانت عاملاً مشتركًا بين جميع نساء ذلك العصر، ولكنها اختلفت من حيث جودتها ونوع قماشها وزينتها باختلاف الطبقات الاجتماعية والأحوال الاقتصادية، نذكر منها "العصابة" وهى طرحة من الحرير مربعة الشكل لها حاشية حمراء أو صفراء، وهى تطوى بصورة منحرفة ثم تلف على الرأس وتتدلى من الخلف، وقد تزين بالحلى واللؤلؤ، وقد كانت بيضاء اللون ومطرزة بأحمر أو أصفر. ومنها "الشعرية" وهى عصابة من قماش خفيف يعصب بها الرأس، مصنوعة من الشعر وخاصة شعر الحصان وتغطى العيون، وتكون فوق "النقاب" أو "الخمار" وتتدلى فوق العيون حتى لاتُرى عيون النساء. والشعريات التى وجدناها فى الوثائق كانت منسوجة من الصوف أو القطن أو الحرير بألوانها البيضاء والزرقاء. ويبدو أنها تكون مع "العصابة" قطعة واحدة، فقد تكون شعرية بعصابة بيضاء أو بصوف أزرق، وأخرى بحرير أزرق وغيرها بقطن بيضاء. ومنها "القناع" وهى أغطية اتخذتها النساء للرأس والوجه معا، وقد تغطى رأسها وجسمها لإخفاء محاسنها، وتثبت على الرأس بواسطة قطعة قماش، وكانت الأقنعة تنسج من قماش العصائب وتجعل لها حواشى من الكتان الأزرق. ومنها "المناديل" التى استخدمتها النساء على مختلف طبقاتهن، وتكون كبيرة أو صغيرة. وقد وجد فى التركات أنواع مختلفة من المناديل منسوجة من الكتان أو الحرير، وألوانها اللون الأبيض والأزرق والأحمر، مطرزة ولها حواشى مختلفة بيضاء وحمراء وسوداء وزرقاء وكمونى وصفراء(٢٩).

كما ينبغى أن نشير إلى أن نساء الحكام منذ بداية ذلك العصر كن يرتدين حلة مذهبة يصل عدد قطعها إلى خمس عشرة قطعة، فكان غطاء الرأس وحده يتكون من أربع قطع تلبس طبقًا لترتيب معين تغطى الرأس ويتدلى طرف أحد القطع حتى يصل إلى الأرض من جهة الظهر، وباقى الملابس تتكون من رداءين من الحرير، وقميص

مذهب بأكمام قصيرة وسروال، وملاءة واسعة لتغطية كل تلك الثياب. وكانت ملابس باقى نساء القصور تقل مكوناتها تبعًا لمكانة المرأة فى البلاط، وتتراوح ما بين حلة مذهبة وحلة حريرية، كما كانت هناك ملابس خاصة بالجوارى والراقصات الهدف منها إبراز مفاتنهن ليكن متعة للناظرين(٣٠). وكانت بعض النساء يلبسن الثياب الموشاة بحرير دمياط وديبق تنيس، ويبدو أن هذا اللباس كان خاصًا بالمرأة الثرية(٣١).

كذلك تجدر الإشارة أن بعض الملابس التى استخدمتها المرأة فى ذلك العصر، قد توارثتها عبر عصور سابقة على ذلك العصر، مثل "الغلالة" والتى جاء أول ذكر لها فى أوراق من البردى ترجع إلى القرن الثالث الهجرى، التاسع الميلادى(٣٢) كما أن الكثيرات من النساء قمن بتطوير وابتكار أشكال جديدة من الملابس ما بين فضفاضة وضيقة(٣٣).

ومن السمات العامة فى ملابس نساء ذلك العصر أن كل طبقة من طبقات المجتمع كان لها ملابسها الخاصة التى تتزيا بها، وتختلف إلى حد ما عن ملابس الطبقات الأخرى، من حيث الشكل والنوع والجودة، بل ونوع المنسوجات المستخدمة، وكان لكل مناسبة ملابس معينة تعكس حالة المرأة النفسية، فكان للأفراح ثياب تناسبها وللأحزان ثياب تناسبها، وللأعياد ملابس تناسبها وهى التى تميزت بالألوان الزاهية المزركشة(٣٤).

وساعد على تطور وتعدد أنواع الملابس ومكملاتها من أدوات الزينة فى مصر والشام توافر المواد الخام اللازمة لصناعتها من ناحية، والصلات التجارية مع العراق وفارس وبلاد العرب، والشرق الأقصى والغرب الأوروبى من ناحية أخرى مما جعل نساء مصر والشام على علم بتطور الملابس وصناعتها فى بلادهم وخارجها. أضف إلى هذا تأثير الجوارى على سائر النساء فى ابتكار كثير مما نطلق عليه اليوم كلمة "الموضة" ودليل على ذلك ما يشير إليه المقريزى من قول إن: "الخواتين نساء السلاطين وجواريهن أحدثن قمصانًا طوالاً تخب أذيالها على الأرض، بأكمام سعة الكم منها

ثلاثة أذرع، فإذا أرخته الواحدة منهن غطى رجلها، وعرف القميص منها فيما بينهن بالبهطلة، ويبلغ مصروفه ألف درهم فما فوقها، وتشبه نساء القاهرة بهن فى ذلك حتى لم تبق امرأة إلا وقميصها كذلك.."[٣٥].

أما ملابس الأقدام للنساء، فقد أشتهر منها ثلاثة أنواع وهى "الخف"، والخف نوع من الحذاء العالى المرتفع الكعب المصنوع من الجلد أو غيره كالجوخ وألوانه بيضاء أو سماقية أى كلون نبات السماق. ومنها "النعل" وهو الذى يشبه الصندل العادى، ويزين وجهه عادة بحرير. ومنها "المشايه" وهو ضرب من النعال الخفيفة تصنع من المخمل أو الجلد الأسود[٣٦]. ومنها "الحذاء" الذى يبلغ منتصف الساق أبيض اللون أو أحمر اللون[٣٧]. كما كان النساء يرتدين فى أرجلهن داخل الدور القباقيب والزرابيل، والزرابيل هى نوع من الخفاف تلبسه الجوارى[٣٨]. وينبغى أن نشير إلى أنه كان هناك نوع من الخفاف تحدث صوتًا عند المشى بها مما يلفت أنظار الرجال إلى المرأة، وكان هذا يعد من الأمور المنافية للآداب، التى تستوجب تدخل المحتسب لمنع النساء من ارتداء هذا النوع من الخفاف وتحذير الأساكفة من صنعه[٣٩].

والحقيقة أن المصادر المعاصرة لم تشر من قريب أو بعيد إلى معاقبة النساء لمخالفتهن التعليمات الخاصة بمنع النساء من ارتداء هذا النوع من الخفاف، مثلما حدث من معاقبة بعضهن لمخالفة التعليمات الخاصة بالملابس، أو نصب أخشاب على أسوار القاهرة ودمشق وحلب وغيرها، وتعليق تماثيل على صورة نساء، وعليهن القمصان الطوال، وذلك لتذكير النساء وتخويفهن[٤٠]. كما لم يحدث أن سمعنا بأن المنادين كانوا يطوفون شوارع المدن الرئيسية محذرين النساء من لبس هذه الأخفاف كما حدث بالنسبة لبعض الأزياء أو أن أعوان المحتسب كانوا يطوفون بالشوارع فى المدن المختلفة، فإذا وجدوا امرأة خالفت التعليمات الخاصة بالخفاف تعرضوا لها بالعقوبة. وحتى مع ذكر بعض المصادر المعاصرة من أن القباقيب كانت تصنع من الذهب، وترصع بالجواهر فإن أحداً لم يتدخل لمنع مثل هذا الإسراف والترف الزائد[٤١].

هوامش:

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٢٧.

(٢) لحد صعب: مختصر تاريخ طائفة الروم ، بيروت ١٩١٤، ص ٢٠٣.

(٣) ابن ظهيرة "جمال الدين محمد": الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤٦٠، ص ٨٠ ب: سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص١٢٧.

(٤) حسن حبشي: رحلة طافور، ص ٩٧؛ ابن الحاج: المدخل إلى الشرع الشريف، القاهرة ١٣٢٨هـ، جـ٤، ص ١٠٦.

(٥) Adler : Jewish Travellers, p. 168 .

(٦) Schefer : Voyage du Magnifique, p. 211 .

(٧) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١٠٢؛ السلوك، جـ٢، ص ٥٢٨.

(٨) محمد عيسى صالحية: من وثائق الحرم القدسى الشريف، ص ٢٠-٣١.

(٩) المرجع السابق: نفسه، ص ٣٢؛ المقريزى: السلوك، جـ٢، ص ٩٨.

(١٠) المرجع السابق نفسه، ص ٣٢-٣٣.

(١١) على السيد على: القاهرة فى عيون الرحالة الأوربيين، ص ٨٢ Adler: Op. Cit.P. 168.

(١٢) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٩، ص ١٧٦؛ ابن الحاج: المدخل، جـ٢، ص١٦٨.

(١٣) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٣٦٧.

(١٤) ابن الأخوة: معالم القربة فى أحكام الحسبة، عنى بنقله وتصحيحه روبن ليوى، مكتبة المتنبى بالقاهرة، بدون تاريخ، ص١٥٧.

(١٥) فوزى محمد أمين: المجتمع المصرى، ص ٣١١-٣١٢.

(١٦) المرجع السابق، ص ٣٣١-٣١٤؛ على السيد على: الجوارى، ص٤٥.

(١٧) محمد كرد على: خطط الشام، جـ٦، ص٢٠٧.

(١٨) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١٢١؛ سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٢٨-١٢٩.

(١٩) The M. Margaret Newett : Canon Pietro Casola's Pilgrims to Jerusalem, Manchester. University Press 1907. pp : 257-259. Ludovico De Varthema : Op. Cit. pp. 13-14. دوزى معجم، ص ٣٤٢،

(٢٠) ماير: الملابس المملوكية ١٢٩؛ محمد عيسى صالحية: من وثائق الحرم القدسى الشريف، ص٢٥.

(٢١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣٢٢؛ محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٢٠-٢١.

(٢٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان، جـ١، ص ٣٣٥.

(٢٣) ماير: الملابس السلوكية، ص ١٢٥؛ محمد عيسى صالحية: نفسه، ص٢٠.

(٢٤) ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص ٢٠.

(٢٥) ابن منظور: نفسه، جـ١، ص ٢٩٦؛ محمد كرد على: خطط الشام، جـ٦، ص٢٠٧.

(٢٦) ابن سيدة: المخصص، جـ٤، ص٧٩.

(٢٧) ماير: الملابس المملوكية، ص ١٢٤.

(٢٨) محمد عيسى صالحية: نفسه، ص ٢٢-٥٤.

(٢٩) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤١٠-٤٤١؛ عبد المنعم سلطان: المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، دار المعارف ١٩٨٥م، ص ٢٨١-٢٨٣.

(٣٠) حسين عليوة: "قطر الندى" مقالة في كتاب القاهرة، تاريخها، فنونها، آثارها، ص١٨٠.

(٣١) جروهمان: أوراق البردى العربية، القاهرة ١٩٢٤، جـ١، ص ٨٥-٨٩.

(٣٢) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، القاهرة ١٩٥٣، جـ١، ص ١٠٩-١١٠.

(٣٣) دوزى: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١، ص ٢٦-٢٨.

(٣٤) المقريزى: السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٨١٠، على السيد على : الجوارى فى مجتمع القاهرة، ص ٤٤-٤٥.

(٣٥) محمد عيسى صالحية، نفسه، ص٢٥.

(٣٦) Ludovico De Varthema : Op. Cit. pp. 13-14

(٣٧) القلشندى: صبح الأعشى، جـ١، ص ٤٢٨.

(٣٨) الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص٧٣.

(٣٩) المقريزى: السلوك، جـ٣، ص ٦٧٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص ١٣٢.

(٤٠) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٨-٢٥.

الفصل الثالث

المرأة والإنتاج



في المجتمعات الصغيرة وبعيداً عن المدن الكبرى مثل القاهرة، ودمشق وحلب، وحيث لم تتوافر وسائل الإنتاج المختلفة، قامت المرأة المصرية والشامية بدور هام وفعال فى إنتاج كل ما يلزمها وأسرتها وبيتها . إذ المعروف عن المرأة أنها وحتى عصرنا الحالى تقوم بإعداد كثير مما يلزم بيتها، من أنواع المفروشات التى تستخدم في المنازل، مثل البسط التى تنسج من الصوف، والسجاجيد والمخدات والمفارش سواء الجلدية منها أم المصنوعة من بعض الأقمشة. وكذلك بعض المقاعد من القطن أو الجوخ وألوانها على الأغلب زرقاء، وقد تضيف إليها قطعاً من الجلد، أو تبطنها بطانة زرقاء وكذلك بعض الطراريح التى كانت تفرش على الأرض الزرقاء والبيضاء والحمراء اللون. بالإضافة إلى الوسائد "المساند" لراحة الناس عند الجلوس أو عند النوم. وكان القماش المستعمل يختلف بحسب الحالة الاجتماعية، فقد يكون قماشها من الحرير المشتهر، أو القماش العادى، وتحشى بالقطن أو تحشى بورق الموز أو اللباد الأبيض، أما ألوانها فتكون زرقاء أو بيضاء بكيس أحمر أو زيتى حرير، وأحياناً تطرز بالحرير الأحمر أو الأبيض[١].

كما كانت تقوم بغزل الصوف والقطن والكتان، واستخدمت بعض الأنوال فى نسج بعض الأقمشة لصناعة بعض أغطية الرأس النسائية من طرح ومناديل وغيرها، وكذلك بعض أغطية الرأس الرجالية. كما أنها كانت تقوم بحياكة الملابس الخاصة بها وبأفراد أسرتها سواء بنفسها أم تذهب إلى "الخياطة" التى تقوم بهذا العمل نظير أجر تتناوله. أضف إلى ذلك القيام بكثير من أشغال الإبرة والتطريز وتزيين الملابس النسائية بوجه خاص سواء الملابس الداخلية "التحتانية" أم الملابس الخارجية "الفوقانية" والتى جاء ذكرها بشكل متنوع ومتعدد فى المصادر الوثائقية بوجه خاص، فتقوم بزخرفتها بالخرز والترتر والقصب وغيرها[٢].

ولعلها كانت في مصر تصنع الألحفة التى صنعتها ولا تزال أختها الشامية، والتى تستخدم كدثار عند النوم وتحشى بالصوف لتستخدم شتاءً وبالقطن لتستخدم صيفًا، وتقوم بتركيب ملاءة على ظهر اللحاف لتقيه الأوساخ وتجعله أقدر على منع البرد. هذا بالإضافة إلى بعض أنواع من الركينات "جمع ركينة" والتى غالبًا ما يكون القصد منها تزيين مكان الجلوس، أو وضعها فى ركن البيت لتضفى جمالاً على المنظر، ولذا فهى إما أن تكون مطرزة بحرير أزرق أو أحمر أو حاشية مزركشة[٣].

كذلك قامت المرأة فى ذلك العصر بصناعة كثير من السلال وبعض الأوعية المنزلية من سعف النخيل، وهى من الصناعات القديمة، وإلى الآن ما تزال تقوم بها كثير من نساء القرى، وبيعها فى أسواق المدن المختلفة وبخاصة فى المناطق التى تكثر بها المزارات السياحية، وخاصة المسيحية فى ذلك العصر حيث تفد أعداد كبيرة من أبناء الغرب الأوروبى لزيارتها أو الحج إليها سواء فى دمشق أو بيت المقدس وما حولها أو فى القاهرة[٤].

ومن الصناعات التى قامت النساء فيها بدور واضح فى ذلك العصر صناعة الصابون، حيث تقوم النساء بعصر الزيوت من الزيتون وغيره فى المعاصر المختلفة، بينما يحضر لهن الرجال مادة البوتاس ليقمن بصناعة أنواع مختلفة من الصابون للاستهلاك المنزلى غالبًا، إذ قامت كثير من مصانع الصابون والتى عرفت باسم "المصابن" بصناعة مقادير كبيرة من الصابون للاستهلاك المحلى والتصدير كذلك[٥].

وفى عصر لم يكن الناس يعرفون ما نعرفه اليوم من عمليات حفظ الأطعمة بالوسائل المتطورة والحديثة، واستخدام الأجهزة المختلفة لذلك، أو التقدم الهائل فى وسائل المواصلات الذى سهل تبادل كثير من السلع وتوفرها فى غير مواسم زراعتها، قامت المرأة بدور كبير وجهد مشكور فى حفظ بعض الخضروات والفاكهة، مثل البامية، والملوخية والتين والمشمش، واللوز والعنب وغيرها، عن طريق تجفيفها فى مواسم كثرتها والاحتفاظ بها لاستخدامها فى مواسم عدم زراعتها، وكذلك حفظ الطماطم

بصنعها على شكل معجون "صلصة" فى أوانى كبيرة مع الملح والزيت حتى يتيسر استخدامها فى وقت ندرتها أو ارتفاع أسعارها؛ وفى بلاد الشام بوجه خاص حيث الشتاء الطويل وكثرة الأمطار والثلوج، قامت النساء ولا تزال بحفظ اللحوم فى مقادير كبيرة من الدهن الحيوانى فى آنية ضخمة، لاستخدامها شيئًا فشيئًا كلما دعت الحاجة إلى ذلك، كذلك قامت بصناعة أقراص "الكشك" وتجفيفها لاستخدامها عندما تدعو الحاجة لذلك، وصناعة بعض أنواع "الشعرية" يدويًا.

بل وتشير بعض المصادر اللاتينية إلى أن النساء فى كثير من القرى فى بلاد الشام على وجه الخصوص، قد شاركن فى إنتاج السكر، باستخدامه من قصب السكر والذى كان يزرع على ضفاف نهر الأردن وفى كثير من أنحاء بلاد الشام، فيقمن بتقطيع عيدانه، وإدخالها إلى المعاصر حتى يتم عصرها، ثم القيام بغلى هذا العصير لتركيزه، ثم صبه فى قوالب من الخوص وتركه حتى يجف ليخرج فى أشكال مختلفة على هيئة مربعات كبيرة أو قوالب أو أقماع؛ وكذلك إنتاج الجبن والزبد والقشدة، وربما ساعدن فى صناعة بعض الأرائك من جريد النخل، والتى كانت تستخدم للنوم أو الجلوس عليها وبعض الحبال والأجولة[٦].

وقامت المرأة بدور كبير فى تربية كثير من أنواع الطيور الداجنة، وتوفيرها للاستهلاك المحلى سواء لأسرتها، أم لسكان المدن المجاورة. ففى مصر مثلاً نجد أنه ما من رحالة زارها إلا وأبدى إعجابه الشديد بمعامل تفريخ البيض الموجودة بكثرة فى القاهرة وضواحيها، والتى وقع على كاهل المرأة، وبخاصة فى القرى القريبة تزويد هذه المعامل بالبيض اللازم لعمليات الفقس، حيث يوضع البيض فى أفران متعددة الطوابق، وبعد أن تتم عملية الفقس تأخذ كل امرأة نصيبها من الفراريج الصغيرة، فتقوم غالبًا بتربيتها حتى تكبر، وتحصل هى وأسرتها منها على بعض ما يلزمهم، وتبيع غالبية ما تبقى فى أسواق القرية والمدينة[٧].

كما كان من أول واجبات المرأة التى تقوم بها فى الصباح وبخاصة فى الريف،

أن تأخذ كمية من الحبوب التى لديها فى المنزل، وتنادى على إحدى جاراتها وتطلب منها مساعدتها لطحن تلك الحبوب بالرحاة، وطحن الغلال فى القرية وربما فى بعض المدن كان دائمًا هو من عمل المرأة، وليس من عمل الرجل. ثم تقوم بعجن الطحين وخبزه فى الفرن التى غالبا ما تكون فى المنزل، وبينما تنشغل الأم فى الخبز فى الفرن فإن البنات عادة ما يتوجهن لجلب الماء اللازم للشرب. فضلاً عن قيامها بإعداد الطعام بألوانه المختلفة والذى لابد وأن يختلف من أسرة لأخرى باختلاف المستوى الاجتماعى والاقتصادى لها، إلى جانب دورها فى تربية الأطفال ورعايتهم، وإعداد ما يلزمهم من كسوة وخياطة ملابسهم وإصلاحها كلما احتاجت لذلك(٨).

وكذلك ساعدت زوجها فى كثير من الحالات فى تبطين أو تلييس الفرن، وواجهة المنزل وأسطحه بطبقة من الطين والقش، كنوع من المحافظة على سلامته ووقايته من عوامل التعرية، فضلاً عن ترطيب الجو صيفًا وحفظ الدفء شتاءً، فى عصر لم يكن الناس قد عرفوا بعد المراوح الكهربائية أو أجهزة التكييف أو التدفئة الحديثة(٩).

وكما شاركت المرأة فى الإنتاج فقد شاركت أيضا فى تصريف الكثير من المنتجات فى ذلك العصر. فقد شاركت فى جمع بعض المحاصيل الزراعية، إذ كان عليها دائمًا أن تحمل – وبخاصة فى القرى – كثيراً من الخضروات والفاكهة والبيض لبيعها فى أسواق المدن القريبة ، أو حتى فى الأسواق الأسبوعية التى تنعقد بصفة دورية، كما كان عليها أن تقطف بعض الفاكهة وتقوم ببيعها لمن يمرون على القرية. كذلك كانت تحمل الحطب لبيعه فى المدينة(١٠). وتشير بعض كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا المنطقة فى ذلك العصر، إلى أن المرأة المصرية والشامية كانت تمارس عمليات البيع والشراء فى الأسواق فى المدن وغيرها بحرية تامة(١١).

وفى المناسبات الاجتماعية المختلفة من ولادة وزواج ووفاة، قامت المرأة بدور كبير فى إعداد الأطعمة، المناسبة التى تقدم للمدعوين والمعزين. إذ تشير بعض المراجع على سبيل المثال إلى أن المرأة المسيحية فى بلاد الشام كانت تقوم بسلق القمح ووضعه

فى أطباق مع الزبيب والحلوى، ويتم حمله إلى الكنيسة فيصلى الكاهن عليه فى آخر القداس فى يوم الأربعين من الوفاة، وتسمى "النياحة"، ويفرق على الناس فيترحمون على الميت[١٢]. كما جرت العادة سواء فى مصر أو بلاد الشام أن تعد نساء الجيران الطعام لعدد من الأيام لأسرة من يتوفى من جيرانهم. بل جرت العادة أن تقام الولائم لإطعام المعزين على نفقة الجيران، بحيث يرسلون الطعام لإطعام جماعة جماعة منهم وهكذا[١٣].

حرف نسائية :

وينبغى أن نشير إلى بعض الحرف التى تخصصت فيها النساء فى ذلك العصر، وما زلنا نرى ونسمع عن بعضها حتى عصرنا الحالى، والتى لم يكن للمجتمع غنى عنها لأهميتها فى حياة المعاصرين. من هذه الحرف حرفة "الغاسلة" أو "المغسلة" وهى التى تقوم عادة بتغسيل الموتى من النساء، وإعداد الأكفان لهن وبخاصة عند المسلمين، وقد كانت تخضع فى عملها لإشراف المحتسب، وغالبًا ما تأخذ منه تصريحًا لمزاولة مهنتها هذه . ومن الطريف أن "الغاسلة" كانت تقوم ببعض مهام الطبيب الشرعى فى عصرنا الحالى، وبخاصة إذا كان هناك ما يستراب منه فى أن تكون المتوفاة قد قتلت. لذا كان عليها فى الحالات العادية أن تدلى بشهادتها أمام المحتسب بأن المتوفاة لم يكن بها أثر لضرب ولا جرح ولا كسر وأنها ماتت بقضاء الله وقدره[١٤]. ومن الحرف المتعلقة بالموتى كذلك حرفة "النائحة" أو "الندابة"، فكثير ما كانت النساء يظهرن الحزن فى حالات الوفيات، ويتم استخدام النائحات فى المآتم، وهن اللائى يضربن بالطارات مع نوح النساء طوال أيام العزاء، وهى عادة كانت منتشرة فى كل الشرق الإسلامى فى ذلك الوقت[١٥]. وكنوع من التعبير عن الحزن على الميت، كما جرت عادتهن بترديد بعض المقاطع الحزينة وإثارة مشاعر ونفوس النسوة من أهل الميت والمعزيات، للبكاء أو النحيب أو الصراخ ولطم الخدود أو تقطيع الشعر، وفى بعض مدن الشام مثل حلب كانت النائحات ينثرن على رؤوسهن الحناء ويشددن فى أوساطهن المآزر، ويخدشن

خدودهن ويسودن وجوههن بسخام القدور، وعند خروج النعش من الدار يضربن باب الدار بإناء خزفى، على اعتقاد أن هذا العمل يمنع من أن يلحق بالميت غيره من أهله. وعادة كسر الأوانى الفخارية عقب خروج جنازة المتوفى، تقليد يونانى قديم أدخله الصليبيون إلى بلاد الشام(١٦).

ومن الحرف المتعلقة بالزواج "الخاطبة"، والتى قامت فى ذلك العصر بدور كبير فى إتمام مهمة الخطوبة، باعتبار أنها كان يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على أسرار الحريم، فتستطيع بذلك أن تأتى للعريس بالعروس التى تتفق مع رغباته ومطالبه، نظير مبلغ من المال يدفع لها(١٧). وكانت مهمة "الخاطبة" أن تقوم بمشاهدة العروس، ثم تعود وتصف للعريس ولأهله جمال العروس وعقلها وحتى إذا كان بها عيب أخفته إمعانا فى إتمام الزواج، فى مقابل ما يتحفه بها أهلها من هدايا وخلافه(١٨).

ومن الحرف التى اشتغلت بها كثير من النساء فى ذلك العصر، حرفة "الماشطة" أو "البلانة" نظراً لكثرة الحمامات العامة فى شتى أنحاء المدن الشامية والمصرية. وفى الحمام اعتادت أن تجتمع النساء والصديقات فيتناقلن أخبار الناس، والاستمتاع بالاستحمام. وفى تلك الحمامات قامت "الماشطة" بإزالة الشعر من جسد النساء، وربما قامت بعمل بعض الوشم على جسد الراغبات من النساء. بالإضافة إلى عمليات التدليك "المساج" وغسل أجسام المترددات بالماء الساخن الذى يوجد عادة بالمغطس، وربما قامت بتكحيل العروس وتمشيطها وتحفيفها، ثم إلباسها أفخر الثياب المطرزة(١٩).

كما يقدم لنا أسامة بن منقذ صورة لقيام بعض النساء بالعمل كساحرات، كالمرأة التى تُدعى "بريكة" التى كانت تسحر بين المقابر خلال ساعات الليل، وقد سخر منها أسامة عندما وصفها بأنها كانت مكشوفة الرأس، منفوشة الشعر، تركب قصبة وتصهل بين المقابر وهى تتجول هناك . وفى ذلك أوضح تعبير عن احتقاره لتلك الأعمال الشريرة من جانب بعض النساء، ومنطقى تصور أن مثل تلك النوعية من

النساء الساحرات وجدت سوقًا رائجة من خلال إقبال عناصر من العامة لحل مشكلاتهم الحياتية المتعددة[٢٠].

ومن الحرف التى أقبلت عليها بعض النساء فى ذلك العصر وما زلنا نسمع عنها حتى فى عصرنا الحالى "الدلالة"، وواضح مما جاء فى الوثيقة رقم ١٦٣ من وثائق الحرم القدسى الشريف، بتاريخ ٩ ذى القعدة سنة ٧٩٣هـ أن عمل "الدلالة" لم يكن قاصراً على تزويد النساء بما تحتاجه الواحدة منهن من أقمشة وملابس وخلافه، إنما كانت "الدلالة" تقوم أيضًا بعملية الإقراض مقابل الحصول على رهن. فقد رهنت إحدى السيدات "حلق ذهب بلؤلؤ" عند "الدلالة" والتى كانت تلقب "المشرفية" على ثلاثة دراهم.

كذلك جاء فى هذه الوثيقة أن "الدلالة" كانت تبيع بالأجل للنساء الأخريات فقد جاء فى نفس الوثيقة أن "جوهرة بنت صلاح بن أبى بكر الدمياطية" أقرت بأن فى ذمتها "للدلالة المشرفية خمسة وثلاثين درهمًا". أما فى عمليات البيع التى كانت تقوم بها، فلم يكن هناك رهن. بل قامت على أساس من الثقة المتبادلة[٢١].

هذه هى أهم الحرف التى تخصصت فيها النساء فى ذلك العصر، بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من "المجبراتية" و"القابلة" أو "الداية"، و"الخياطة" و"الواعظة". و"الشيخة" و"المحدثة" أو "المسندة" وهذا ما سوف نشير إليه فى حديثنا عن دور المرأة فى الحياة الثقافية عصر الحروب الصليبية فى كل من مصر والشام. كما أنه من المرجح وجود "ضاربة الرمل والودع" على غرار ما كان موجوداً عند الرجال للاهتمام بمعرفة الطالع، وغيرها من الحرف التى لم يكن لمجتمع النساء بوجه عام غنى عنها طوال ذلك العصر، وفيما تلاه من عصور بل وحتى فى عصرنا الحديث مع ما نحن فيه من تقدم وتطور.

هـوامش:

(١) محمد عيسى صالحية: من وثائق الحرم القدسى الشريف، ص ٣٣-٣٤.

(٢) المرجع السابق: نفسه، ص ٣٥؛ على السيد على: القدس فى العصر المملوكى، ص ١٩٨؛ Prescott : Once to Sinia, The further Pilgrimage of Frair Felix Fabri, London, 1957, p. 181.

(٣) محمد عيسى صالحية : نفسه، ص ٣٥.

(٤) على السيد على : القدس، ص ١٩٩.

(٥) المرجع السابق، نفسه، والصفحة ذاتها.

(٦) Burchard of Mount Sion : A Discription of the Holy Land, pp. 10-16 ; Fleming : The History of tyre, Culumbia, `915, p. 15 : Prawer : The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem 1922, p. 375; Lees : Op. Cit. Pp. 82-83

(٧) على السيد على: القاهرة فى عيون الرحالة الأوروبيين، ص ٣٩-١٤٥؛ إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، القاهرة ١٩٩١م، ص٨٣.

(٨) على السيد على: القدس، ص ٢٧٤.

(٩) الشربينى : هز القحوف، ص ٥٤ .

(١٠) Lees . Op. P. 92-157 ; Bartlett (R.H) : Jerusalem Revisites ed. Thornes Nelson, London, 1854, p. 15 .

(١١) Francesco Souriano : Treatise on the Holy Land trans from the Italian By. R. Theophilus Bellorini. Jerusalem 1948, pp. 203-204 .

(١٢) أديب لحود: العادات والأخلاق اللبنانية، ص ١١٠؛ على السيد على: القدس، ص ١٤٨٠.

(١٣) القس أسعد منصور: تاريخ الناصرة، ص ٢٨٠؛ أديب لحود: نفسه، ص ١٠٤؛ على السيد على: نفسه، ص ١٤٩.

(١٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان، جـ١، ص ٢٥٥-٢٥٧؛ محمد زغلول سلام: نفسه، ص ٢٣؛ د. كامل العسلى : وثائق مقدسية، جـ١، ص١٢٥.

(١٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ص ٧٣٠؛ عبد العزيز عبد الدايم: إمارة طرابلس الصليبية، ص ١٧٧.

(١٦) أحمد رمضان: المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٧٧، ص٢٥٤.

(١٧) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١١٩؛ نعمان القساطلى: الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، بيروت ١٩٧٩، ص ٣٢٧؛ على السيد على: القدس فى العصر المملوكى، ص٢٦٨.

(١٨) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ٧١.

(١٩) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ٩٥ - ١٢٢.

(٢٠) محمد مؤنس: الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩٥، ص ٢٥٠.

(٢١) محمد عيسى صالحية: من وثائق الحرم القدسى، ص ٨٥.

الفصل الرابع

المرأة بين العرش والجهاد



هناك أدلة واقعية كثيرة تثبت تدخل بعض نساء السلاطين والأمراء فى شئون الحكم ومشاركتهن فى توجيه سياسة الدولة فى ذلك العصر. وأول هذه الأمثلة ما ذكره لنا مؤرخ دمشق الشهير ابن القلانسى عن "الخاتون صفوة الملك زمرد" أم اسماعيل بن بورى بن طغتكن حاكم دمشق، من أنها فى يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٢٩هـ تدخلت لإصلاح أحوال أتابكية دمشق بسبب فساد أحوال ابنها المذكور وتناهيه فى ارتكاب القبائح والمنكرات وحب الظلم، ومصادرة المتصرفين والعمال، والقبض على أصحابه وكتابه وعماله وغيرهم من أهل دمشق، وقيامها بنصيحته مراراً، إلا أنه لم يستجب لنصحها، فاستدعته وامتعضت منه، واستبشعت أفعاله، وتأملت الأمر فى ذلك فلم تجد لدائه دواء، ولا لسقمه شفاء إلا بالراحة منه وحسم أسباب الفساد، فأمرت غلمانها بقتله، وأمرت بإخراجه حين قتل وإلقائه فى موضع من القصر ليشاهده غلمانه. فسر جميع أهل دمشق بمصرعه وابتهجوا بالراحة منه. وأمرت فنودى بإقامة أخيه الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بورى فى منصبه، وحضر أعيان الرعية فسلموا عليه وحلفوا على الطاعة له ولوالدته والمناصحة فى خدمتهما، والنصرة لأوليائهما، والمجاهدة فى أعدائهما، وظهر من سرور الكافة خاصيها وعاميها ما يزيد على الوصف بتصرفها هذا[١] وبذلك استطاعت أن تنقذ البلاد وتدير شئونها فى فترة عصيبة من أحرج فترات تاريخ دمشق.

وسوف نشير فى الصفحات القادمة – عندما نتحدث عن المرأة حاكمًا – إلى مثال آخر وهو "شجرة الدر" التى وصفها المؤرخون بأنها كانت "صعبة الخلق قوية البأس"، والتى استطاعت أن تنقذ البلاد أثناء الحملة الصليبية السابعة – على مصر، وتدير شئونها فى فترة من أخرج فترات التاريخ المصرى، فضلًا عن أنها تولت السلطنة وقضت فيها ثمانين يومًا برهنت فيها على كياسة عظيمة وذكاء وافر[٢].

ومن النساء اللائى قدر لهن أن يلعبن دورًا بارزًا فى تصريف شئون البلاد السياسية، "ضيفة خاتون" ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب المتوفاة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ولقبها "الصاحبة"، والغالب أن هذا اللقب كان يلقب به كبار الوزراء، مما دل على مكانة صاحبه، وهى والدة الملك العزيز صاحب حلب محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب الذى توفى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م تاركًا طفله الصغير الناصر يوسف ليرثه فى الحكم، فقامت هى بالوصاية عليه، وتدبير شئون المملكة حتى يشب فى رعايتها وعنايتها على ممارسة مقاليد الحكم. إلا أنها سرعان ما توفيت، وقام بتدبيره بعد جدته عدد من كبار أمراء حلب. وطوال الفترة التى تولت فيها تصريف مقاليد البلاد وصية على حفيدها لقيت كل عون واحترام من أبناء الأسرة الأيوبية الحاكمة، وأرسلت لبعضهم السفارات المختلفة فلم يردوا لها طلبًا. منها السفارة التى أرسلت فيها المؤرخ الشهير "ابن العديم" رسولاً إلى الملك العادل الثانى الأيوبى فى القاهرة، ليطلب من العادل أن يُسيِّر معه بنات الملك العادل الأول فأجابها إلى ذلك. ثم حدث أن صار الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطانًا على مصر، قبل رحيل ابن العديم من القاهرة، فاستحضره الصالح وأكرمه، وزوده برسالة إلى "ضيفة خاتون" جاء فيها أنه يقبل الأرض بين يدى الستر العالى، ويعرفها أنه مملوكها، وأنه عبد بمحل الملك الكامل، وأنه يعرض نفسه لخدمتها وامتثال ما ترسم به[٣].

ومنهن أيضًا يذكر لنا ابن تغرى بردى فى وفيات سنة ٦٥٥هـ "الصاحبة غازية خاتون" ابنة الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، والدة الملك المنصور صاحب حماة. التى دبرت ملك ولدها المنصور بعد وفاة زوجها الملك المظفر أحسن تدبير، وهى والدة الملك الأفضل نور الدين أبى الحسن على أيضًا. وكانت وفاتها فى أواخر ذى القعدة أو ذى الحجة من هذه السنة المذكورة[٤].

كذلك يبدو أن المكانة التى وصلت إليها بعض النساء فى قصور السلاطين والأمراء، أغرت هؤلاء على المشاركة فى أكثر من جانب من جوانب الحياة السياسية

عن قرب، مثال ذلك ما حدث سنة ٦٧٦هـ عندما شب الخلاف بين الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن السلطان الظاهر بيبرس وبين أمرائه، فقامت أمة بمفاوضة الأمراء فى الصلح، فأظهروا لها كل احترام، واشترطوا عليها شروطًا كثيرة، التزمت لهم بها وعادت لولدها لتخبره بنتيجة وساطتها(٥).

ومما يذكر أن أرملة الظاهر بيبرس هذه اشتركت مع ابنها الملك السعيد المذكور فى تدبير حيلة للتخلص من أحد كبار مماليك والده وهو الأمير بدر الدين الخزندار نائب السلطنة، عندما بلغها أنه يطلب الأمر لنفسه، فعندئذ دست له السم فى هناب "كأس" فيه سكر وليمون فشربه ومات بعد يومين، وقيل أنها قامت برشوة حكيمه بمبلغ ثلاثة آلاف دينار حتى يسكت ولا يخبره بحقيقة الأمر(٦).

بالإضافة إلى أنه عندما أدرك المعاصرون سلطة النساء بوجه خاص صاروا يوسطوهن لقضاء حوائجهم، حيث نسمع أن أرملة الظاهر بيبرس السابقة كانت السبب فى قيام ابنها السلطان الملك السعيد بالإفراج عن عدد كبير من الأمراء الذين كان قد قبض عليهم، فأفرج عنهم وخلع عليهم وأعادهم إلى مكانتهم بسبب إلحاح عدد كبير من أهاليهم عليها للتوسط لهم(٧).

كما يذكر ابن الصيرفى فى وفيات سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م عن زوجة السلطان الملك الظاهر برقوق خوند شيرين أنها لعبت دورًا مهمًا قبل وفاتها فى خلاص الأمير تغرى بردى، والد المؤرخ الشهير جمال الدين يوسف أبى المحاسن من السجن، حيث شفعت له عند السلطان فلم يرد شفاعتها(٨) وقد تكررت مثل هذه الشفاعة كثيراً، حيث نسمع أنه فى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧٤م أيام السلطان الأشرف قايتباى، أن إحدى زوجاته، قد سألت السلطان فى إطلاق سراح بعض أفراد المماليك المسجونين، وكان هذا بالنسبة لهم من الفرج بعد الشدة والسرور بعد النوح، والأمن بعد الخوف(٩).

كما نسمع فى المصادر المعاصرة أن إحدى زوجات السلطان مثلاً كانت هى سعد السلطان وسعادته، رأيه ومشورته، وأنها قُصدت لقضاء حوائج الناس جاءوها من أقصى البلاد، وخدمها أرباب الدولة، وكان السلطان منقاداً لما تقول، مطيعاً لما تأمر به(١٠). كما أنه كثيراً ما نسمع أنه إذا تعذر على تاجر مثلاً قضاء مطلب عند أهل الدولة، بحث عن الطريق الذى يوصل به شكواه إلى حريم السلطان، وعن هذا الطريق كانت تقضى حاجته فوراً نظراً لما كان يغدقه أصحاب المصالح هذه من أموال وهدايا على حريم السلطان. ونسمع من المصادر المعاصرة أيضاً أن كثيراً من أرباب الوظائف المختلفة كانوا يحملون إلى حريم السلطان وكبار الأمراء الهدايا القيمة والنفيسة، حتى تستقر لهم هذه الوظائف(١١).

ويروى المقريزى كيف تطرف بعض الولاة فى ذلك العصر فى مصادرة التجار، وإنزال المظالم بهم، فقام كثير من كبار الأمراء ليشفعوا للتجار ولكن السلطان لم يسمع لأحدهم قولاً؛ حتى إذا قامت زوجة السلطان فى رفع المظالم عن التجار، عندئذ استمع السلطان لرجائها ونفذ رغبتها فوراً(١٢) وكثيرا ما نسمع أن زوجة أحد السلاطين أو جاريته تسببت فى إلغاء مكس من المكوس أى إحدى الضرائب المجحفة، كما قال ابن حجر عن طغاى زوجة الناصر محمد بن قلاوون "وبسببها أبطل الناصر عن مكة المكس الذى كان يؤخذ على القمح"(١٣).

يضاف إلى هذا ما تشير إليه كثير من المصادر المعاصرة من أن عدداً كبيراً من الأمراء كانوا يستغلون بعض النساء فى حريم السلطان كعيون لهم على هؤلاء السلاطين، وذلك للوقوف على كل ما يحاك فى القصر السلطانى من مؤامرات ضدهم، ورصد حركات السلاطين وكبار الأمراء من تدابير خاصة لصالحهم(١٤).

المرأة حاكمًا:

الحق أن حياة "شجرة الدر" كأول حاكم من النساء فى تاريخ الوطن من أحفل حيوات النساء بالمتعة والطرافة، فهى امرأة تبز الرجال فى قيادة الرجال ولكنها امرأة

فى كل حال. فمن هى ؟ هى زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى تولى السلطنة يوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة ٦٣٧هـ بعد أن عزل أخاه الملك العادل، ولدت من الملك الصالح ولداً سماه خليلا، ولقبه بالملك المنصور ولكنه مات طفلاً.

وكان سقوط مدينة بين المقدس سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م فى يد الملك الصالح نجم الدين أيوب وحلفائه الخوارزمية، السبب الذى أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالحملة السابعة بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع على مصر، فلم تكد الأمور تستقر للصالح فى مصر، إذا بأنباء هذه الحملة تصله، وعلم الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون مجاز الصليبيين المفضل لغزو مصر، فعكسر بجيوشه جنوبها فى بلدة أشموم طناح وهى أشمون الرمان بمركز دكرنس حاليًا، وأمر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة، ووضع فيها حامية من عرب بنى كنانة، كما أرسل إليها جيشاً بقيادة الأمير فخر الدين يوسف، وأمره أن ينزل بساحلها الغربى ليحول دون نزول العدو إلى الشاطئ، فنزل هناك تجاه المدينة وأصبح النيل بينه وبينها(١٥).

ثم وصل الأسطول الفرنسى قبالة دمياط إلى البر الغربى للنيل حيث وقعت بينه وبين جيش فخر الدين عدة مناوشات انسحب بعدها فخر الدين بجيشه وبحامية المدينة إلى معسكر السلطان بأشموم طناح فى الوقت الذى اشتد المرض بالسلطان، واستولى الفرنج على دمياط لا لسبب إلا للاضطراب الذى وقع بين صفوف المسلمين بسبب مرض السلطان، وأقامت "شجرة الدر" مع السلطان المريض فى المنصورة التى تم اتخاذها كقاعدة لمواجهة الخطر الداهم. وهناك برز دورها واضحاً فى قيادة الصراع ضد الغزاة. فقامت بتوزيع الأدوار على شتى الأمراء وعوام الناس الذين جاءوا يريدون الجهاد من كل النواحى، وعلى العربان، وأخذت فى تنظيم حرب استنزاف العدو، وأمرت السفن الحربية بالمرابطة فى النيل تجاه المنصورة لمقاومة وإحباط أية محاولة تقوم بها سفن الأعداء، وأسفرت عمليات الاستنزاف التى استمرت ستة أشهر عن أسر العديد من فرسان العدو، وترحيلهم للقاهرة للتحفظ عليهم هناك بناء على أوامر من

"شجرة الدر" فى الوقت الذى أخذ فيه المرض يشتد بالسلطان، وقواه تنحط حتى وقع يأس الأطباء من برئه وعافيته(١٦).

ومع هذا لم تتوقف حرب الاستنزاف التى نظمتها "شجرة الدر" والتى كانت فى ازدياد مستمر، ولم تقف نتائجها عند أسر أفراد العدو، بل تعدتها إلى الاستيلاء على بعض سفنه الحربية عند البرلس. ولما شعرت بدنو أجل زوجها طلبت منه أن يعلم عشرة آلاف علامة يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته، حتى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا من شمال العراق، ليعتلى السلطنة بعد أبيه(١٧). وفى تلك الأثناء كان لويس التاسع ينتظر فى دمياط مقدم أخيه كونت دى بواتييه، وبوصوله قرر الفرنج الزحف على القاهرة قائلين : إن من يريد قتل الأفعى فليحطم رأسها أولاً(١٨).

فى تلك الأثناء توفى الصالح أيوب فأمرت "شجرة الدر" أحد الأطباء الذين تولوا علاجه بأن يغسله ويكفنه ويحمله فى تابوت إلى قلعة الروضة ويخفى خبر موته. كما أحضرت الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والطواشى جمال الدين محسن، وكانا أقرب الناس إلى السلطان وإليهما القيام بأمر مماليكه وحاشيته، وأعلمتهما بموت السلطان، ووصتهما بكتمان موته خوفًا من الفرنج، فاتفقا مع "شجرة الدر" على القيام بتدبير المملكة إلى أن يقدم الملك المعظم تورانشاه. كما أحضرت الأمراء الذين بالمعسكر، وقالت لهم: إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له، ولابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانًا من بعده، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية "أى قيادة الجيش"، فقالوا كلهم سمعًا وطاعة، ظنًا منهم أن السلطان حى، وحلفوا بأسرهم، وحلف سائر الأجناد والمماليك السلطانية. وكتب على لسان السلطان إلى الأمير حسام الدين بن على الهذبانى بالقاهرة، أن يحلف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة. كما انتدبت من المعسكر الفارس أقطاى وهو يومئذ زعيم المماليك البحرية لاستعجال إحضار الملك المعظم تورانشاه من حصن كيفا(١٩).

هذا "وشجرة الدر" تدير الأمور وكأن شيئًا لم يحدث، والقصر السلطانى على حاله، والسماط السلطانى يقام فى كل يوم كالعادة، والأمراء تحضر للخدمة، إلا أنها تعتذر لهم بعدم استطاعة السلطان مقابلتهم، وأن الأطباء منعوا زيارة أحد له رفقًا به حتى يتم شفاؤه. بينما يدير الأمير فخر الدين أمر المعسكر مدة ٧٥ يومًا إلى أن قتل أثناء هجوم الفرنج على المنصورة، فتولت هى إمرة الجيش وتدبير شئونه، وفى هذه الفترة التى تولت فيها قيادة الجيش تحقق للمسلمين النصر على الجيش الصليبى عندما هاجم المعسكر الإسلامى فى المنصورة. فقد استطاعت القوة الأساسية بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى أن تقوم بحركة التفاف سريعة ضد لويس التاسع وجنوده وطاردوهم فى الأزقة وتعقبوهم حتى استطاعوا أن ينزلوا بهم ضربة كبرى عند فارسكور، وهى بلدة تبعد عن دمياط بحوالى ١٢ كيلو مترا بمحافظة الدقهلية، حيث وقع آلاف من الصليبيين بين قتيل وأسير. وكان من بين الأسرى لويس التاسع نفسه الذى اقتيد إلى المنصورة حيث اعتقل فى دار ابن لقمان[٢١].

وجاء المعظم تورانشاه إلى القاهرة بعد فشل الهجوم الصليبى على المنصورة، فسلمته "شجرة الدر" مقاليد الحكم بعد أن ظلت ما يقرب من السنة بعد وفاة الصالح أيوب تدير شئون البلاد بكفاءة عظيمة، ولكن تورانشاه لم يكن كأبيه ثباتًا واتزانًا وحكمة، بل كان شابًا أهوج، فلم يُقدر لزوجة أبيه "شجرة الدر" تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم، بل أخذ يهدد "شجرة الدر" ويطالبها بمال أبيه، كما أبعد مماليك أبيه، وقرب إليه حاشيته التى وصلت معه من كيفا، فكانت نهايته المفجعة على أيدى المماليك فى التاسع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨هـ/ مايو ١٢٥٠م[٢٢].

ووقع الاختيار على "شجرة الدر" لتشغل منصب السلطنة عسى أن يضع هذا الإجراء حداً لمطلب الأمراء الأيوبيين فى السلطنة فى القاهرة. وقبل أن تدير "شجرة الدر" السلطة على أنها زوجة الصالح أيوب وأم ولده خليل حرصت على أن تلقب نفسها لا بلقب السلطانة فحسب بل كذلك شجرة الدر عصمة الدين أم خليل الصالحية لتأكيد

استمرار الصلة بالبيت الأيوبى، وبالتالى إزالة أى اعتراض من المطالبين الشرعيين بمنصب السلطنة من بنى أيوب(٢٣). وكان أرباب الدولة يحترمونها، وخطبوا لها على المنابر. والواقع أن قيام "شجرة الدر" فى السلطنة كان البداية العملية لدولة المماليك لأنها بحكم أصلها أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين. وهكذا يمكن القول بأن دولة المماليك قامت فعلاً فى شعبان سنة ٦٤٨هـ/ مايو سنة ١٢٥٠م على يد امرأة ذكية تركية الأصل. وكانت أول ما فكرت فيه السلطانة الجديدة هو إنهاء ذيول الحملة الصليبية بإقرار مبادى الاتفاقية التى سبق عقدها بين تورانشاه ولويس التاسع، لذا عقدت "شجرة الدر" معاهدة جديدة بدلاً من المعاهدة السابقة. ومهد لها المفاوض المصرى الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى مندوب "شجرة الدر" فى التفاوض مع الملك لويس التاسع، بالاتفاق على تسليم دمياط وإخلاء سبيل لويس ومن معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار، يدفع نصفها قبل الرحيل، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا(٢٤).

ومع أن شجرة الدر أبدت استعداداً كبيراً لتولى السلطنة وأثبتت فعلاً مقدرة فى إدارة الصراع العربى الصليبى على أرض المنصورة وفارسكور، إلا أن هذا كله لم يكن كافيًا لإقناع الرأى العام فى مصر والعالم الإسلامى، وخاصة بعد أن أرسل الخليفة العباسى يستنكر تولية امرأة ملك المسلمين. وقد كان التقليد المتبع فى عهد الأيوبيين أن السلطان لاتصبح ولايته شرعية إلا إذا اعترف به الخليفة العباسى فى بغداد، وأرسل إليه التقليد بذلك(٢٥).

هكذا كانت "شجرة الدر" مضطرة للتنازل عن العرش، وقررت أن تدير دفة الأمور من وراء ستار، فاختارت الزواج من قائد الجيش الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى، ولقد لعبت دوراً حتى فى وصوله لهذا المنصب، فهى حسبما يؤكد ذلك ابن عبد الظاهر كانت تعرف أخلاقه، وتعرف منازل أمرائه ومماليكه، وتم الاتفاق بينهما على أن يكون الرأى والتدبير لشجرة الدر وقام الأمر على ذلك مدة، وإن داخل

الطمع عز الدين أيبك فى الملك، وتسمى بالملك المعز وتسلطن، ثم خاف فرجع عن ذلك، وبقى اللقب له(٢٦).

وتزايدت الوحشة بينه وبين شجرة الدر وكذلك الصراع حول العرش. فعزم على قتلها على حد قول المقريزى حيث كان له منجم قد أخبره أن سبب قتلته امرأة ويظهر أن أيبك أخذ يشعر بما بين شجرة الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقيات للوقوف إلى جانبها، فضلاً عن أنها بعثت بهدية إلى الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب دمشق، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز، والتزوج به وتمليكه مصر. فخشى الناصر يوسف أن يكون هذا خديعة فلم يجبها(٢٧). وأرسل عز الدين أيبك فى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٦م إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب إليه حلفًا زواجيًا بخطبة ابنته. وكانت هذه الخطبة بداية النهاية لعهد أيبك، لأن مضارة امرأة مثل "شجرة الدر" وهى التى دلت على مهارة وقوة شخصية فى مواجهة الصليبيين، كانت أسوأ من اللعب بالنار. ذلك أنه لما علمت "شجرة الدر" بما بيته لها أخذت تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته، وقبض أيبك على عدد كبير من أمراء البحرية بمصر لأنه علم بمؤازرتهم لها، فأراد أن يقضى على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة وإن لم يقطع كل حبال الود أملاً فى الحصول على ذخائر الملك الصالح نجم الدين أيوب. لذلك هجر القلعة وأقام بمناظر اللوق أيامًا فى الوقت الذى بيتت فيه مالم يكن فى الحسبان بالنسبة لأيبك. فبعثت إليه من حلف عليه وكأنها تسترضيه، فطلع القلعة وقد أعدت له خمسة من أشد الرجال والمصارعين لقتله. فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الأول، ركب المعز أيبك وصعد إلى القلعة آخر النهار، ودخل إلى الحمام ليلاً وكان آخر العهد به. ولما أشيع موت السلطان أراد المماليك المعزية قتل شجرة الدر بعد أن هاجموا القصر وقبضوا على الخدام، والحريم وعاقبوهم فأقروا بما جرى؛ إلا أن المماليك الصالحية حموها، ونقلت إلى البرج الأحمر بالقلعة وقيل إنها لما علمت أنها

مقتولة أودعت جملة من المال عند جماعة متفرقة، وأخذت كثيراً من الجواهر، كسرتها في الهاون، حتى لا يستولى عليها حواشى الملك المعز أيبك[٢٨].

ولما أقيم ابن المعز فى السلطنة، حُملت شجرة الدر إلى أمه فأمرت جواريها بضربها بالقباقيب فظللن يضربنها طوال يوم بكامله وجزءا من يوم حتى ماتت وتأكدن من موتها. وألقين بها من سور القلعة وبقيت بالخندق عدة أيام حتى تم دفنها بتربتها قريب مشهد السيدة نفيسة بعدما يقرب من الثلاثة أشهر من قتل عز الدين أيبك[٢٩]. وصلب من قاموا بقتل أيبك على باب القلعة، كما أعدم أربعون من خدام شجرة الدر وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة، وقبض على وزيرها الصاحب بهاء الدين بن حنا وصودر له مبلغ ستون ألف دينار[٣٠].

هكذا حكمت واحدة من نساء ذلك العصر، وهكذا كانت نهايتها. فإذا توجهنا بأبصارنا إلى بلاد الشام، بالإضافة إلى الإشارات السابقة سنجد مثالاً آخر عند بعض الطوائف المسيحية المحلية وبخاصة طائفة الأرمن، حيث يذكر لنا ابن الأثير – وهو معاصر – أن زوجة كواسيل صاحب مرعش وكيسوم على الحدود الشمالية لبلاد الشام، والتى كانت تكره الصليبيين، أنها بعد وفاة زوجها تحصنت من هؤلاء الفرنج وأحسنت إلى الأجناد، وأدارت مقاليد الحكم فى كل من مرعش وكيسوم ورعبان، ودبرت أمر هذه البلاد أحسن تدبير بعقل وحكمة، بحيث فاقت الكثير من الرجال[٣١].

كما تشير بعض المصادر المعاصرة إلى قيام المرأة الأرمنية بدور هام فى مجال العلاقات السياسية، بالإضافة إلى ما قامت به فى الحكم، حيث قامت بالسفارات إلى الخلافة العباسية فى بغداد. فمن ذلك أن جبريل حاكم ملطية أواخر القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر للميلاد، أرسل زوجته فى سفارة إلى مدينة بغداد لتظفر باعتراف أعلى سلطة إسلامية آنذاك، وعادت مكللة بالنجاح[٣٢].

المرأة والجهاد :

تثبت أحداث الحروب الصليبية أن المرأة فى مصر والشام تمتعت بكل مقومات المحاربين، ذلك أنه ليس فيها بطبيعة تكوينها الخلقى ما يقصر بها عن شأو المشاهير من أهل حرف الحرب. ولم لا وهى لديها الاستعداد الإيجابى لعمليات القتال، من تماسك وتضارب فى قسوة، ومن قدرة على احتمال الآلام التى تصيب النفس، وهى إن لم تفق الرجل فى هذا الاستعداد، فهى ند له على الأقل(٣٣).

ومنذ بداية الحملات الصليبية الأولى التى اجتاحت البلاد، قامت المرأة بدور فعال فى تحريك تيار الآراء السياسية والدينية المطالبة بموقف أكثر حزمًا فى مواجهة الفرنج الغزاة(٣٤). فقد وصل الفرنج إلى مشارف بلاد الشام فى الوقت الذى بدا فيها واضحًا الانقسام فى العالم العربى، وتحوله إلى دويلات صغيرة متشاحنة، فى ظل خلافتين متصارعتين، هما الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة. لذا لم تمض إلا سنوات قليلة حتى كان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت أجنادهم وصولتهم وامتدت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا أبناء البلاد سوء العذاب، واستطار فى البلاد شرر شرهم، وامتدت ممتلكاتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى عريش مصر، ولم يبق بأيدى الحكام المسلمين سوى حلب وحماه وحمص ودمشق(٣٥).

كما كان لأحداث تدفق اللاجئين إلى المقاطعات الإسلامية، والتنكيل بالسكان المحليين فى مذابح بشرية رهيبة وإبادة جماعية، ودأب الفرنج على شن الغارات على أرض المسلمين يوما بعد يوم، وطرد السكان الوطنيين من بلادهم، وإنشاء العديد من المستوطنات، وإحلال جماعات من الغرب الأوروبى محلهم والاستيلاء على مصادر الثروة والإنتاج وحرمان أبناء البلاد منها، أن علت أصوات الاستياء فى كل مكان، وظهرت صحوة عربية إسلامية عبرت عن نفسها فى استنفار الجهود، والتعبئة للحرب، وإعلان الجهاد، والمقاومة الشعبية الجارفة لضرب مخططات العدو(٣٦).

وكان للمرأة دورها البارز فى هذه الصحوة وحالة التنبيه والإفاقة التى عاشها الوطن العربى، عقب الإغفاءة التى تمكن خلالها أبناء الغرب الأوروبى من إذلال جميع القوى العربية والإسلامية، وإصابتها فى هيبتها وكرامتها(٣٧) فكانت وراء ما قام به المثقفون فى إعلانهم فى خطب الجمع وفى كتاباتهم وأشعارهم ومنتدياتهم ورفضهم لكل القيادات المتخاذلة. كما كانت وراء خروج المستنفرين من دمشق وحلب وغيرهما إلى الخلافة العباسية فى بغداد، والإبلاغ عما لحق الإسلام من الفرنج وقتلهم الرجال وسبيهم النساء والأطفال، وخلق مناخ للرأى العام الضاغط، كان من المتعذر معه وفى ظله تجنب المواجهة المباشرة للتحدى الذى فرضه الوجود الصليبى على الأرض العربية(٣٨).

ليس هذا فحسب بل ظهر دورها واضحًا فى مساندة الرجال، وبخاصة فى المدن والقرى التى خضعت لحكم الفرنج، وشاركت فى الثورات التى قام بها أهالى هذه القرى والمدن ضد الحكم الصليبى كلما سنحت لهم الفرصة بذلك، وما أحدثوه من دمار وخراب، وامتناع عن زراعة الأرض حتى لا يستفيد العدو من نتائج زراعتها(٣٩). ويتضح دور المرأة بجلاء فى مؤازرة الرجال فى المناطق التى خضعت للحكم الصليبى، ليس فحسب فى تحمل الأعباء المالية والمادية التى فرضها العدو على أهل هذه البلاد، بل وفى تحمل المعاناة النفسية والتى كانت أشد وطأة عليهم، وتمثلت فى حالات القهر والتعسف وصلف بعض الحكام الفرنج ؛ مثال ذلك ما حدث فى بعض القرى المحيطة بنابلس فى إقطاع مجد ليابا، عندما اشتط الإقطاعى الصليبى فى إلحاق الأذى وتوقيع العقوبات البدنية على سكان القرى التابعة له، وكلهم كانوا من المسلمين، والتى وصلت إلى حد تقطيع الأرجل. هذا بالإضافة إلى أنه رفع نسبة تحصيل ضريبة الرأس إلى أربعة أمثال ما يجمعه الأمراء الصليبيون الآخرون فى باقى المناطق، وتحمل الفلاحون تلك المظالم كنوع من مثابرة النفس على تحمل الشدائد فى سبيل البقاء، لأن البقاء يعنى الشرعية.

غير أن الكيل طفح عندما تدخل هذا السيد الإقطاعى وعرقل إقامة الشعائر الدينية واضطهد خطيب قرية "جماعيل" فى نفس المنطقة من نابلس، ونتيجة لذلك فقد قرر سكان المنطقة نساءً ورجالاً مغادرة ثمان قرى، وأسسوا ضاحية الصالحية بالقرب من مدينة دمشق، وجعلوا همهم الجهاد(٤٠). ولم يكن السبب فيما قاموا به من هجرة قراهم ضيق سبل الحياة بهم، بقدر ما كان تحطيم صلف أمثال هؤلاء الحكام الفرنج، وإشعارهم بمدى أهمية وجود هؤلاء الفلاحين، وضرورة احترام مشاعرهم الدينية، وكان مثل هذا التصرف هو السبب فيما نسمع عنه بعد ذلك عند بعض المؤرخين المعاصرين أمثال أسامة بن منقذ من حرص أمراء الفرنج على فلاحيهم حرصًا شديداً(٤١).

كذلك يبدو جليًا للعيان دور المرأة فى المقاومة الشعبية التى أدركت طبيعة المجتمع الصليبى، الذى أقيم على الأرض العربية وعلاقة هذا المجتمع بالظهير الأجنبى فى الغرب الأوروبى، الذى كان همه هو القضاء على القوى العربية الإسلامية كقوة فعالة فى تحريك الأمور فى هذه البقعة من الأرض، فأمدوا المجتمع الصليبى بالبشر والعتاد(٤٢). وتمثل هذا الدور فى ضرب خطوط الاتصال التى تربط هذا العدو بالظهير الأوروبى، وإنزال الخسائر الفادحة على كل من ينزلها(٤٣).

ويؤكد لنا أسامة بن منقذ بعض ما قامت به المرأة من دور فى هذا المجال فى حديثه عن نساء شيزر فيقول : ومن إقدام النساء أن جماعة من الفرنج وصلوا إلى بيت المقدس للزيارة وعادوا إلى رفنية، وكانت فى ذلك الوقت خاضعة لحكم الفرنج، وخرجوا منها يريدون التوجه إلى مدينة أفامية. وجاءوا إلى شيزر وهى إذ ذاك بغير سور، ودخلوا المدينة وهم فى نحو سبع مائة أو ثمان مائة من الرجال والنساء والصبيان. وكان عسكر شيزر قد خرج فى إحدى المهام. فخرج رجل من شيزر فى شغل له فى الليل فرأى إفرنجيا، فعاد وأخذ سيفه وقتله، ووقع الصياح فى البلد، وخرج الناس لقتالهم، وغنموا ما كان معهم من الفضة والبهائم، وكان ممن خرج إليهم امرأة تدعى

"نضرة بنت بوزر ماط" فهاجمت أحد رجال الفرنج وأسرته وأدخلته في بيتها وقيدته، ثم خرجت وهاجمت الفرنج مرة ومرة حتى اجتمع لها ثلاثة أسرى، فأخذت ما كان معهم وما صلح لها وخرجت دعت قوماً من جيرانها فقتلوهم(٤٤).

ويضرب مثالاً ثانيًا لنخوة النساء في ذلك العصر في حديثه عن واحد من الرجال با ع نفسه للفرنج، واشتغل في خدمة صاحب كفر طاب ويدعى ثيوفيل. فكان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين يغنمهم ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين. وامرأته معه بكفر طاب تنكر عليه فعله أموال وهدايا على حريم أو تنهاه فلا ينتهي. فأرسلت أحضرت نسيبًا لها من بعض الضيا ع وأخفته إلى الليل، واجتمعت هي وهو على زوجها فقتلاه وخرجا من كفر طاب هربًا إلى شيزر وقالت "غضبت للمسلمين مما كان يفعل هذا الكافر" فأراحت الناس منه، ورعى لها أهل شيزر هذه النخوة وعاشت بينهم عزيزة مكرمة(٤٥).

كذلك يذكر أنه عندما هاجم جماعة الإسماعيلية شيزر في شهر أبريل سنة ١١٠٩م، وكان معظم شباب المدينة من المقاتلين ومن بينهم أسامة نفسه قد خرجوا لمواجهة هذا الهجوم، فقامت والدة أسامة بتوزيع ما تبقى من السلاح والدروع على جميع الموجودين بالدار من الجواري والنساء الأحرار ممن لهم القدرة على الدفا ع عن أنفسهن، وأخذت ابنة لها كبيرة في السنة لا تستطيع الدفا ع عن نفسها إلى إحدى المشربيات في الدار المطلة على نهر العاصي استعداد للإلقاء بها في النهر لتموت غرقًا على أن تقع في أسر هؤلاء الأعداء.

كما يذكر أن إحدى جواري جده الأمير أبي الحسن علي وتدعى "فنون" وكانت طاعنة في السن، إلا أنها أخذت في ذلك اليوم سيفًا وتلثمت وخرجت إلى القتال وما زالت تقاتل جنبًا إلى جنب الرجال حتى تم لأهل شيزر النصر في ذلك اليوم(٤٦).

وأخيراً يذكر لنا كيف فضلت أسيرة مسلمة أن تموت غرقًا على أن تظل في أسر أحد الفرنج، ففي إحدى هجمات الفرنج على مدينة شيزر، كان في الجند المكلفين

بحراسة الجسر المقام على نهر العاصى والموصل إلى شيزر، رجل كردى يقال له "أبو الجيش" له ابنة اسمها "رفول" قد سباها أحد الفرسان الفرنج، ففضلت أن تلقى حتفها على أن تصبح أسيرة لديه، فرمت بنفسها إلى نهر العاصى فغرقت، وعلق ثوبها فى شجرة صفصاف، فلما عرف أبوها الخبر سكنت لوعته عليها.

إن هذه الأمثلة التى ضربها المؤرخون المعاصرون إن دلت على شىء فإنما تدل على قصة البسالة النادرة، لا فى الميدان فحسب، بل فى معترك الأريحية الفردية، فى جو من حب الحق والحرية والإيمان بهما، الملئ بالبواعث الوطنية، والشجاعة العسكرية ما فى ذلك شك، وهكذا جرأة المرأة والنساء فى المناطق التى تتاخم الحدود المهددة بالغزاة الغاصبين. ولأن السماء وحدها هى السلطة القادرة على ما عجز عنه الملوك والجحافل، ولأن المناداة فى الناس أن السماء معنية بأمرهم، مشغولة بتفريج كربهم شىء يلاقى فى نفوسهم هوى بقدر ما يفتح أمامهم أبواب الآمال. فهذا تحليل وتعليل بلسان المعقول.

هوامش:

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، طبع بيروت، ١٩٠٨، ص ٢٤٥-٢٤٧.

(٢) سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص١٣٦.

(٣) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم٢، ص ٢٩٨- ٣١١.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٧، ص ٥٧.

(٥) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٣؛ ابن تغرى بردى: النجم، جـ٧، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٦) ابن الفرات "ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم": تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع، تحقيق: قسطنطين رزيق، بيروت، ١٩٤٢، ص ٩٤-٩٦.

(٧) المصدر السابق، جـ٧، ص ٩٦-١٤٢.

(٨) نزهة النفوس والأبدان، حـ٢، ص ٨١.

(٩) ابن الصيرفى: إنباء الهصر، ص ٤١٧.

(١٠) ابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان، جـ٣، ص ٣٦١.

(١١) المقريزى: السلوك، جـ٢ قسم ٣، ص ٦٢ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٩، ص ١١٦؛ سعيد عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٣٦-١٣٧.

(١٢) المقريزى : السلوك، جـ٢، قسم ١، ص ٤١٢ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق، ١٣٦.

(١٣) ابن حجر: إنباء الغمر، جـ١، ص ١٠١؛ الدرر الكامنة، جـ٢، ص ٢٢١ ؛ سعيد عاشور: نفسه، ص ١٣٧.

(١٤) المقريزى: السلوك، جـ٣، ص ٦٠-٦١؛ على السيد على: الجوارى، ص ٦١-٦٣.

(١٥) ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١، ص ١٢١؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ١ ص ٣٢١؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٦، ص ٢٣١-٢٣٢.

(١٦) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(١٧) المصدر السابق / جـ١، قسم ٢، ص ٣٣٨-٣٣٩.

(١٨) Joinville : History of Saint Louis, trans, by Evons p. 54 .

(١٩) المقريزى: نفسه، جـ١، قسم ٢، ص ٣٤٢-٣٤٥.

(٢٠) المصدر السابق: نفسه، جـ١، قسم ٢، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٢٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٧١؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٦، ص ٣٦٤.

(٢٣) ابن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر، ص ١١ ؛ المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٣٦٢ ؛ أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص ١٨٠ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، جـ١، ص ٨٨.

(٢٤) ابن تغرى بردى: النجوم

جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، ١٩٦٧، جـ٢، ص ١٤٣-١٥١.

(٢٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق د. عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م، ص ٥١-٥٢.

(٢٦) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٤٠١-٤٠٢.

(٢٧) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٤٠٣؛ ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ٦، ص ٢١٩-٢٢٠.

(٢٨) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، جـ٦، ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢٩) المقريزى: السلوك، جـ١، قسم ٢، ص ٤٠٤.

(٣٠) ابن الأثير: Rec. Des. Hist : Historiens Orientaux, Tome I, p. 293؛ ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ورقة ٨٠ أ. مخطوط.

(٣١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٧٨ ؛ على السيد على : المجتمع المسيحى فى بلاد الشام عصر الحروب الصليبية، رسالة ماجستير لم تنشر بجامعة القاهرة ١٩٧٩م، ص ٧٥.

(٣٢) صوفى عبد الله: نساء محاربات، دار المعارف، ١٩٩١م، ص ٩-١٠.

(٣٣) أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، بيروت ١٩٩٣، ص ١١٨.

(٣٤) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، جـ١، ص ٢٠.

(٣٥) لمزيد من التفاصيل، راجع، على السيد على : المقاومة الشعبية للغزو الصليبية، مجلة عصور التاريخية، المجلد السادس، الجزء الثانى ١٩٩١م، ص ٢٣١-٢٦٤.

(٣٦) محمد محمد مرسى الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية، ١٩٧٤م، ص ٢.

(٣٧) يوشع براور : عالم الصليبيين، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، ود. محمد خليفة حسن، دار المعارف ١٩٨١، ص ٦٩.

(٣٨) William of Tyre : A Hist. Of Deeds done Beyond the Seas, vol. II, pp. 112-113; Stevenon : The Crusaders, p. 77 .

(٣٩) ابن طولون الصالحى : القلائد الجوهرية، القسم الأول، ص ٢٦-٢٨.

(٤٠) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، ص ٩٢.

(٤١) مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤، ص ٥.

(٤٢) Thomas Wright : Early Travels in Palestine, London, 1848, p. 30 .

(٤٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، ص ١٢٩

(٤٤) المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٤٥) المصدر السابق، ص ١٢٤-١٢٨.

الفصل الخامس

المرأة والحياة الثقافية

المرأة بين التعليم والتعلم :

كان إقبال المرأة على التعليم إقبالاً كبيراً، فالأم إذا كانت متعلمة وبخاصة بنات الأسرات العلمية – وما أكثرهن فى ذلك العصر – فعادة ما تقوم بتعليم بناتها القراءة والكتابة، كما تقوم بالإشراف على تحفيظهن القرآن الكريم، وبعض كتب الحديث النبوى الشريف، وبخاصة الكتب الصغيرة التى تجمع سبعة أحاديث، أو ثمانية أحاديث، أو أربعين حديثا[1]. هذا بالنسبة للمسلمين، أما غيرهم من أبناء أهل الذمة من مسيحيين ويهود فكن يحفظن بعضًا مما جاء فى الإنجيل والتوراة، وأقوال القديسين. كما وردت إشارات فى بعض المصادر المعاصرة تفيد بما لا يدع مجالاً للشك أن بنات الأسرات العلمية وكثير من ذوى الثروة والجاه كن يتعلمن فى منازلهن على أيدى نخبة من كبار ومشاهير علماء ذلك العصر. حيث كان يحضر هؤلاء العلماء إلى منازلهم هؤلاء الفتيات ويقومون بتعليمهن من وراء حجاب، وربما كانت الواحدة منهن تُحضر معها أخاها لتلقى العلم فى هذه الدروس[2]. كما نسمع عن حالات لبعض الأسرات بأنها كانت تستدعى بعض كبار العلماء لتعليم بناتهم وأولادهم، وأن أحد هؤلاء الشيوخ قام بتعليم الصبية مع البنات فى مكان واحد فى المنزل لأنهم جميعا أبناء رجل واحد، أو أبناء أسرة واحدة وإن تعددت أمهاتهم[3].

وتجدر الإشارة إلى حرص الأسرات العلمية بوجه خاص وقد شاركهم فى هذا بقية أفراد المجتمع على تعليم بناتهم فى سن مبكرة، إذ تشير بعض كتب المعاصرين إلى أن البنات كن ينلن قدراً من التعليم ابتداءً من سن الثالثة أو الرابعة من أعمارهن، حيث تقوم الأم بدورها أولاً، وكذلك الأب أو الجد أو أحد الأقارب بذلك؛ وعادة ما كانت تبدأ هذه المرحلة التعليمية الأولى بتعليم البنات الخط والقراءة وربما الكتابة مع تحفيظهن بعض صغار السور، وبعض الأحاديث الشريفة، وكلما مر عام زادت حصيلة

البنت من علوم الحديث والقرآن أو الكتب المقدسة لدى غير المسلمين، وغالبًا ما كانت تسمع أيضًا على كبار مشاهير العصر؛ وبعد التأكد من حفظها تحصل على إجازة أى شهادة بذلك. فما تكاد تصل إلى سن الرابعة عشر إلا وتكون قد حصلت على قدر كبير من التعليم.

وفى مرحلة متقدمة من الدراسة تشبه مرحلة الدراسات العليا يمكنها أن ترحل مع والدها غالبًا إلى كبار العلماء ومشاهيرهم أينما وجدوا فى مصر وبلاد الشام وربما غيرها لتلقى العلم عليهم(٤) وذلك أن العالم الشهير هو الذى يشد بعلمه طلبة وطالبات العلم إليه أينما كان، سواء كان رجلاً أو امرأة.

كما يتضح لنا مما ذكره بعض المعاصرين أن كثيراً من العلماء كانوا يسمحون لبناتهم بحضور مجالسهم العلمية من وراء حجاب، وخاصة مجالس السماع حيث يقوم أحد طلاب العلم بالقراءة فى كتاب من الكتب المتداولة، بينما يقوم ذلك العالم بشرح ما تتم قراءته. كذلك كان يتم فى مجالس السماع هذه رواية الأحاديث الشريفة، وغالبًا ما كان يتم إثبات أسماء هؤلاء البنات فى مجالس السماع هذه، وبذلك يتسنى لهن رواية ما سمعن مشروحًا بطريقة السماع، وعادة ما تستمر مجالس السماع هذه عدة جلسات يتم ذكرها. كما كان يحدث فى مجالس السماع هذه أن يلقى أحد الأدباء قصيدة شعرية أو عدة أبيات، وبذلك يحق لمن تحضرها أن تنشد هذه الأبيات عن هذا الأديب بلفظه، وإذا لم يكن هو نفسه صاحب القصيدة، فقد جرت العادة أن تنشد الواحدة منهن هذه الأبيات أو تلك قائلة وأنشدنا فلان بلفظه عن فلان إجازة وقد يكون الإنشاد فى القصائد الأدبية إما عن طريق الإذن مكاتبة، أى بإذن صاحب القصيدة أو راويها لإحداهن بإنشاد القصيدة ويكتب لها إذنًا بذلك، وإما أن يكون بالإجازة مكاتبة أى أن يجيز لها أن تروى القصيدة(٥).

وفى ذلك العصر واضح تمامًا إقبال عامة النساء على مجالس العلم والدين ؛ إذ حرصت كثيرات منهن على حضور هذه المجالس، حيث يجلسن فى مكان منفرد عن

الرجال وكما سبق أن أشرنا. ولم تكن مجالس العلم هذه يعقدها الشيوخ فقط بل نسمع أن بعض شيخات ذلك العصر كن يخصصن مكانًا فى منازلهن لمجالس العلم، يحضرها كبار مشاهير العلماء للسماع عليهن بالإضافة إلى النساء، ولنضرب مثالاً على صحة ما ذهبنا إليه بمؤرخ مكة الشهير وأحد كبار فقهائها وهو "تقى الدين الفاسى" الذى حضر من مكة إلى القاهرة، وسمع على أم عيسى مريم بنت أحمد بن القاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الأوزعى بمنزلها بظاهر القاهرة. فسمع عليها الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وأجازته برواية مروياتها كذلك سمع عليها بعضًا من القصائد الشعرية[٦]. كما رحل إلى دمشق وتلقى كثيرًا من علوم الحديث النبوى الشريف على مسندة الوقت أم عبد الله عائشة بنت المحتسب شمس الدين محمد بن عبد الهادى المقدسية الصالحية وأجازته بالرواية عنها فى كل مروياتها[٧].

وقد كان لهؤلاء الشيخات بعض مؤلفاتهن الخاصة، وإن كانت المصادر المعاصرة ضنت علينا بذلك، إلا أن هناك إشارة فريدة عثرنا عليها عند الفاسى نفسه يذكر فيها أن بعض مشاهير ذلك العصر فى علم الحديث بوجه خاص سمعوا ثمانيات مؤنسة خاتون بنت الملك العادل الأيوبى، وسباعياتها، وهى إحدى كتب الحديث الصغيرة التى تجمع سبعة أحاديث أو ثمانية، رواها سبعة محدثين أو ثمانية فى موضوع واحد، مثلها مثل كتب الأربعين التى سبقت الإشارة إليها[٨]. ولعلنا لا نغالى القول إذا ذكرنا أن بعض النساء فى ذلك العصر فى مصر والشام قد وصلن إلى درجة علمية لا يدانيهن فيها إلا القليل من الرجال، ومن عظماء الرجل، وبخاصة فى مجال علم الحديث النبوى الشريف.

كما تسجل المصادر المعاصرة أسماء كثيرات من النساء ممن اشتغلن بالنحو، وحفظن فيه الشيء الكثير، كما كان لهن ولع بالشعر. أما من اشتغلن منهن بالفقه والعلوم الدينية فعددهن كبير جداً. وقد دأب الكثير من طلبة العلم ومشايخه فى شتى الأقطار الإسلامية الأخرى على التوافد إلى مصر والشام طوال ذلك العصر للدراسة

على أيدى كثير من النساء الشهيرات فى هذا المجال. ولم يأنف هؤلاء العلماء مع عظم مكانتهم من الاعتراف بأنهم درسوا على أيدى أمثال هؤلاء الشيخات، بل على العكس افتخروا بأنهم سمعوا عن فلانة وفلانة من المحدثات. والحقيقة أن عدد النساء اللائى اشتهرن فى مصر والشام فى مجال الحياة العلمية والدينية كبير بلا شك وقد يفوق الحصر(٩).

ولنضرب بعض الأمثلة على الشيخات الشهيرات في ذلك العصر، فنذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر الشيخة زينب بنت كندى المتوفاة سنة ٦٩٩م/١٢٩٩م، وهى التى سمع عليها عمدة مورخى ذلك العصر تقى الدين المقريزى فى بعلبك، كما يذكر أنه تتلمذ على جويرية الهكارية التى توفيت سنة ١٣٨١/٧٨٣م(١٠) وست الوزراء الشيخة المعمرة الصالحة المسندة أى إمامة علم الحديث، أم عبد الله بنت القاضى شمس الدين عمر بن العلامة شيخ الحنابلة وجيه الدين أسد بن المنجا بن أبى البركات التنوخية الدمشقية الحنبلية ؛ عمرت دهراً طويلاً تتردد ما بين بلاد الشام ومصر والحجاز، وسمع عليها خلق كثير من كبار مشاهير ذلك العصر مثل الدانى، وابن المحب، وفخر الدين المصرى، وصلاح الدين العلائى، وابن قاضى الزبدانى، إلى أن توفيت سنة سبع وسبعمائة، وست العرب، المسندة المعمرة، أم محمد بنت الشيخ المحدث عز الدين عبد الحافظ بن عبد المنعم بن غازى بن عمر المقدسى التى توفيت سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م بدمشق(١١). وبركة بنت الحافظ العراقى، أم أيمن. سمعت على والدها قاضى القضاة وشيخ الإسلام الحافظ العراقى، كما سمعت على جدها أيضا. وسمع منها كثير من علماء الشام ومصر فى ذلك العصر(١٢). ومنهن أيضا شهدة بنت ابن العديم الحلبى، توفيت فى حلب سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م. وقد سمع عليها ناظر جيش دمشق ومحتسبها وأحد كبار محدثيها أبو اسحق الآمدى الحنفى المتوفى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م(١٣).

ومنهن أيضا مؤنسة خاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب التى توفيت سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م سمع عليها أبو محمد عبد الله بن موسى الزواوى أحد مشايخ قاضى

مكة وخطيبها شهاب الدين بن ظهيرة المتوفى سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩[١٤]. يقول عنها المقريزى : هى عصمة الدين مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل أبى بكر ابن أيوب وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد وإليه نسبت. كانت ولادتها فى سنة ثلاث وستمائة ووفاتها ليلة الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وكانت قد سمعت الحديث وخرج لها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد الظاهرى أحاديث ثمانيات حدثت بها، وكانت عاقلة دينية فصيحة، لها أدب وصدقات كثيرة وتركت مالاً جزيلاً[١٥].

كذلك تشير بعض كتب الرحالة المعاصرين وكتب التراجم إلى علو كعب كثير من النساء فى العلوم الدينية المختلفة، وأن دورهن لم يكن قاصراً على المدن المصرية والشامية، بل نشرن علومهن فى كثير من بقاع العالم العربى، والمراكز الثقافية الإسلامية المختلفة فى ذلك العصر. كما قصدهن أبناء هذه المراكز المختلفة من طلبة ومشايخ العلم وأجزن لكثير منهم[١٦].

وإذا كنا قد ذكرنا بعض الأمثلة الدالة على اهتمام المرأة بعلوم الحديث ودراستها وعلو كعبها فيها وحصولها على العديد من الإجازات العلمية التى مكنتها من أن تكون من كبار المحدثات، فإن كتب التراجم تحدثنا عن أن كثيرات من النساء فى ذلك العصر كان لهن الدور البارز فى الحياة العلمية، فمنهن الفقيهات، ومنهن الواعظات[١٧]. كذلك سلكت بعض النساء فى ذلك العصر طريق التصوف، فلبسن الخرق كما يلبسها المتصوفة من الرجال وأطلق عليهن الشيخات كما يطلق على كبار رجال المتصوفة لقب الشيوخ، ولازمت هؤلاء المتصوفات الزوايا والأربطة التى خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن. كذلك حرصت الشيخات على أن يلبسن الصوف لمن تتوب على أيديهن وتدخل فى طريقتهن، مثلما يفعل مشايخ الصوفية من الرجال. وكن يخصصن حلقات للذكر وعادة ما كن يرفعن أصواتهن فى حلقات الذكر هذه، وإن كان أحد كبار فقهاء ذلك العصر قد عاب عليهن رفع أصواتهن فى حلقات الذكر هذه، وقال

إن العجيب فى هؤلاء الشيخات أنهن لا يمضين إلى موضع لعمل الذكر فيه إلا بعد دفع الرسم المقرر لضامنة المغانى(١٨).

كما يسجل التاريخ أسماء كثيرات ممن اشتغلن فى ذلك العصر بالعلوم العقلية كالطب والهندسة والكيمياء، وصنفن فيها المصنفات الطوال، نذكر منهن "روضة الزمان" الطبيبة العالمة المهندسة البارعة ابنة زكريا يحيى البياس من أطباء صلاح الدين. كذلك نذكر الطبيبة والفلكية والفيلسوفة "ست العرب الحلبية" بنت على بن الفقاس الذى كان يعتبر أوحد زمانه فى صناعة الطب، وكان له مجلس للمشتغلين عليه كانت تتصدره ابنته ست العرب. ونذكر من ذلك العصر كذلك "زاكية موفق الدين بن المطران" التى أخذت عن أبيها علوم الطب والفلسفة، وكانت من الأعيان ولها عدة مصنفات(١٩).

المرأة والطب والرعاية الصحية :

إن من يتصفح كتب التراجم والمؤلفات التاريخية لهذا العصر سيخرج بانطباع قد يظلم المرأة ولا يعطيها حقها فى مجال الطب والرعاية الصحية. ذلك لأن كتب المعاصرين اهتمت بذكر الرجال كأطباء والذين برعوا فى علاج كثير من الأمراض. إلا أننا ودون تحيز نستطيع القول أن المرأة قد أدلت بدلوها فى هذا المجال. فمن خلال استقراء بعض النصوص التاريخية التى جاءت عرضا فى بعض المصادر المعاصرة والموثوق فيها يمكننا القول إن كثيراً من نساء ذلك العصر كانت لهن اهتمامات طبية وخبرات كبيرة، وبخاصة أن المرأة كأم أو أخت أو زوجة كان يقع عليها العبء الأكبر فى ملاحظة الأطفال وإسعاف من تراه فيهم محتاجًا لإسعاف، سواء بتطهير جرح أو تضميده، أو إعطاء دواء مسهل أو ملين، أو لخفض درجة حرارته، أو فى مقاومة نزلات البرد أو الوقاية منها، وخلافه من الأمور التى جرت العادة بها.

ومع هذا تشير القليل من المصادر المعاصرة إلى اهتمام وعناية كثير من نساء ذلك العصر بالطب والتداوى بالأعشاب الطبية الشائعة آنذاك، فى عصر كان استخدام هذه الأعشاب والنباتات الطبية يشكل ركيزة هامة فى معالجة كثير من الأمراض. ولنضرب على ذلك مثالا ذكره عمدة مؤرخى ذلك العصر وهو تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى ترجمته لوالدته أسماء بنت محمد بن الصائغ، بأنها كانت قد اكتسبت خبرة كبيرة فى معالجة الصداع المبرح الذى كان يحير الكثير من الأطباء فى زمانها وذلك عن طريق تركيبة من نباتات "الكابل والهندى والسنامكى وزهر البنفسج العراقى والصنانير والسكر" بحيث تُسحق هذه الأعشاب الطبية مع السكر وتُؤخذ الجرعات من هذا المسحوق لمدة ثلاثة أيام على هيئة سفوف، وأنها وصفت هذه التركيبة مراراً عديدة فى حياتها الطويلة التى عاشتها فما أخطأت على حد قوله[٢٠].

كما قامت المرأة بدور فعال فى معالجة الكسور بالتجبير، أى بوضع جبيرة حول العضو المصاب، وبخاصة للنساء والأطفال. فإذا وقع حادث كسر أو شرخ فى العظام لإحدى النساء، أو لأحد الأطفال فقد كان يتم إحضار إحدى النساء المتخصصات فى عمليات التجبير هذه فتفحص مكان الإصابة، ثم تضع عليها جبيرة بعد رد العظم لمكانه الأصلى، وهذه الجبيرة غالبًا ما تكون من ألواح خشبية رفيعة، ثم تلف بالقماش لفًا جيداً، وكان المعاصرون يعتبرون مدة العلاج مرتبطة بعمر المصاب أو المصابة، فإذا كان المصاب أو المصابة فى سن الأربعين من العمر مثلاً احتاج أو احتاجت إلى أربعين يوماً للشفاء وهكذا تطول مدة الشفاء أو تقصر باختلاف الأعمار.

ولقد اكتسبت كثير من النساء هذه الخبرة العلمية والعملية من والدها أو أحد أقاربها، فتعلمت منه أو على يديه هذه العملية، وقامت بمعالجة النساء والأطفال وربما بعض الرجال من الكسور التى تحدث لهم[٢١]. وكما كان يطلق على من يقوم بهذه العملية من الرجال لقب "المجبر" "المجبراتى" فقد كان يطلق على من تقوم بها من

النساء كذلك لقب "المجبراتية" وهى من ألقاب النسبة المعروفة لنا منذ أمد طويل وحتى سنوات قليلة مضت.

كذلك من المرجح وكما هو سائد من المجتمعات الشرقية حتى عصرنا الحديث، أن تكون بعض النساء قامت بدور فعال فى عملية "الطهارة" أو "الختان" وبخاصة للبنات، حيث قام الرجال بعملية الختان هذه للصبية وقليل من البنات. هذا إلى جانب قيامها بعملية الإشراف على النساء الحوامل فى أيامهن الأخيرة من الحمل وحتى الولادة، وهى التى اشتهرت باسم "الداية" أى القابلة، وما زالت تقوم بهذا الدور كذلك وإن كان الطب الحديث قد حل محلها فى كثير من الأحيان.

وجرت العادة أن تختار كل امرأة قابلة معينة أو "الداية" كما جرت العادة أن يتم الاتفاق مع تلك القابلة على أجر معلوم قبل الوضع، وحتى لا يحدث نزاع حول تحديد أجرها بعد الوضع، وهذه القابلة لها كرسى مخصوص تصحبه معها عند اللزوم[٢٢]. وهذه القابلة، كانت تقوم بتحميم الطفل وإلباسه بعض الملابس المعدة له وذلك بعد قطع سرته، وتعليق بعض التمائم والتعاويز، وقد تضع له خرزة زرقاء للوقاية من الحسد، كما تقوم بوضع الكحل للطفل المولود من أول يوم ولادته، وعادة ما تقوم بلفه بقماط لكى يقى جسمه من البرد أو الاهتزاز. كذلك تقوم فى الأيام الثلاثة التالية لولادته بدهنه بالزيت، وفى اليوم السابع تقوم بغسله بماء معطر وتسقيه منه، وتدهن رأسه وأنفه ومفاصل جسده بالزيت المعطر، ثم يعاد لفه فى القماط الذى لف به منذ ولادته ويستمر ملفوفاً هكذا مدة أربعين يوماً، ثم يسمح له بارتداء الملابس العادية[٢٣].

كما لا يفوتنا أن نشير إلى الدور الذى قامت به كثير من النساء فى التمريض ورعاية المرضى، جنباً إلى جنب الأطباء. حيث اهتم المعاصرون بتوفير الرعاية الصحية سواء داخل "البيمارستانات" أى المستشفيات التى أقامها بعض السلاطين والحكام وأهل الخير واليسار، أم تلك التى أقامها بعض رجال الدين المسيحيين المحليين والأجانب، فقد كان أبناء الطوائف المسيحية المحلية يعالجون مرضاهم داخل

مؤسساتهم الدينية من أديرة وكنائس فى مصر والشام. كما أقامت طائفة الرهبان الفرنسيسكان ديراً لها فى جبل صهيون بالقدس، وكانوا يأخذون المرضى لعلاجهم به، كما كانوا يرسلون الأطباء من ديرهم هذا للكشف على المرضى، ويمدونهم بالأدوية التى يصفها أطباؤهم ولم يكن عملهم قاصراً على مدينة بيت القدس وحدها، بل شمل كثيراً من مدن بلاد الشام(٢٤).

المرأة والحياة الأدبية :

لعبت المرأة دوراً بارزاً فى فنون القول المختلفة التى رددتها الألسنة على مر الأيام والأعوام فى مصر والشام فلقد فتن بالمرأة الكثير من الشعراء بمالها من حسن وإبداع، وعبروا عن مشاعرهم نحو المرأة فى كثير من المناسبات المختلفة.

فمنهم من أُعجب بامرأة تصفق بكفيها، والتصفيق بالكف وإن بدا شيئًا عاديًا غير أنه إيقاع من الإيقاعات الموسيقية يشبه الضرب على الدف تماماً. وهو أمر يفطن إليه كل ذواقة للموسيقى. فالشاعر "الدمامينى" وهو أحد شعراء ذلك العصر كان ذواقة للموسيقى فقال يعبر عن إعجابه بإحدى النساء التى تفننت فى هذا المجال قائلاً:

لقد دقت بكفيها فتاة صفت فينا خلائقها ورقت

أفديها مغنية رأينا بها الأفراح حلت حين دقت

يقول " ابن دانيال" فى امرأة كانت تضرب بالدف :

ذات القوم الذى يهتز غصن نقا لو مر يوم عليه طائر صدحا

بدا على الدف كالجمار معصمها أناملاً ببنان تشبه البلحا(٢٥)

والباحث فى الأدب فى ذلك العصر سوف يجد حشداً هائلاً من شعر الغزل، والذى يعبر أصدق تعبير عن أثر المرأة بوجه عام والجوارى بوجه خاص فى فنون

القول، بل وذوق هذا العصر، ونظرته إلى الجمال، وبعض ما طرأ على معايير هذا الجمال من تطور وتغيير. كما كان لأسواق النخاسة "الرقيق" وما تقذف به كل يوم من جوارٍ مختلفات الأجناس والألوان أثرها الواضح فى صورة المحبوبة، حيث كانت صورة الجارية الحسناء التى تتقن فن الحب هى المثال المستلهم فى كثير من شعر الشعراء فى هذه الحقبة.

كذلك كان لتباين النماذج التى قذفت بها أسواق الرقيق من الجوارى من سوداء وبيضاء، ومن هندية إلى رومية أو تركية أثره فيما تقرأ من نتاج هذا العصر الأدبى، فقد احتدمت المفاضلة بين محبى البيض ومحبى السود، وكل منهم له ما يبرر ذوقه. مثال ذلك ما قاله أحد أعيان شعراء ذلك العصر وهو الأمير أحمد بن موسى بن يغمور المتوفى سنة ٦٩٣هـ فى مدح جارية:

سوداء بيضاء مسكية أنفاسها حلوة … معشوقة الحركات والألفاظ

مسكية مسكية أنفاسها … هندية هندية الألحاظ[٢٦]

ومن تغزلات ابن فضل الله العمرى المؤرخ الشهير فى إحدى الجوارى قوله :

جاءوا بأنواع الطيب لنا تحملها … معشوقة ممشوقة

قلت خذوا الطيب لكم جميعه … بشرط إلا تأخذوا المعشوقة[٢٧]

بل ربما مال الشاعر إلى جانب ثم عاد فمال إلى الآخر وليس فى هذا غرابة وليس فيه مجال للحكم عليه بالادعاء، فالشاعر ملك لحظته، وهو رهن بالموقف الذى امتلكه، وبالصورة التى ملكت عليه فؤاده. ولنضرب لذلك مثلاً بالبهاء زهير، فهو حينا يفضل السمر وينتصر لهن، وحينا آخر يفضل البيض وينتصر لهن : فيقول فى تفضيل السمر :

السمر لا البيض هم … أولى بعشقى وأحق

وإن تدبـــــــرت مقالـــــــى   منصفًـا قلـــت صدقـــت

السمـــــر فـى لـون اللمـــــى   والبيض فى لـون البهـــــق

ويعود مرة أخرى فيفضل البيض فيقول :

ألا إن عندى عاشق السمر غالـط   وأن الملاح البيض أبهى وأبهـــج

وإنى لأهـــوى كل بيضـــاء غـــادة   يضـــىء بها وجـــه وثغـر مفلـــج

وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى   ولا شك أن الحق أبيض أبلج[٢٨]

كما كان لتدفق العناصر التركية إلى المنطقة أثره الواضح فى الحياة الأدبية، ذلك أن الجمال التركى غدت له الغلبة فى المضار، ففتن الناس به، ورأى الشعراء فى المرأة التركية صورة مثلى للجمال، فكثر تغزلهم بالتركيات، وإشادتهم بجمالهن. وخير مثال لذلك ما نقع عليه فى شعر محى الدين بن عبد الظاهر من وصفه إحداهن بوجهها الناصع، وشعرها الفاحم، بحيث تبدو له كالملكة على ما فى الكون من مظاهر الجمال، فالبدر لا يزيد على حامل لغاشية موكبها، والنجوم ليست أكثر من حاشية لها، ولا شك أنه يستمد هذه الصورة مما يراه فى المواكب السلطانية. كما سادت معايير الجمال التركى، فأصبح الوجه الأبيض والشعر الفاحم من تمام الجمال، كذلك صارت العيون الضيقة مثار فتنة الشعراء[٢٩].

وتداعى شعراء ذلك العصر على اختلاف منازلهم إلى اللهو والخلاعة والمجون بحيث يمكن القول أن هذه الأمور أصبحت مذهبًا يتمذهب به الناس، بل أصبحت فلسفة يعتنقونها. فقد نظروا إلى الخلاعة على أنها راحة تسلى هموم الشخص عند انقباضه وقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة، لأن النفوس فى تلك الآونة كانت متشوقة إلى شىء يسليها عن الهموم ويزيل عنها وارد الغموم، على حد قول أحد المعاصرين[٣٠].

المرأة وفنون الطرب والغناء :

وجدير بالإشارة أن هذا العصر تنوعت فيه فنون الموسيقى والطرب والغناء، فهناك الأغانى الحضرية، والموسيقى الممتزجة بأصول فارسية وتركية، وهناك الأغانى الشعبية، وكل كان له عشاقه ومحبوه[٣١].

كما شهد المجتمع الشامى بوجه عام والمجتمع المصرى بوجه خاص ازدهار فنون الطرب والغناء وضروب اللهو، نتيجة لذلك الرواج الاقتصادى الذى عم البلاد معظم ذلك العصر، وانعكست آثاره واضحة فى إقبال الناس حكامًا ومحكومين على هذه الفنون والملاهى ومتع الحياة ولذاتها. ولم يدخر السلاطين والأمراء، وبخاصة سلاطين المماليك، بصفتهم الطبقة الحاكمة وسعًا فى الإقبال على المطربين والمطربات وتشييد المغانيات وهى قاعات فسيحة خصصت لسماع الغناء والطرب، والاستمتاع بمشاهدة الرقص وسماع الموسيقى، باعتبارهم قد ورثوا محبة الفنون والغناء عن أسلافهم الفاطميين والأيوبيين[٣٢].

كما كان الغناء والشراب من أشهى ضروب اللهو فى حياة كثير من حكام ذلك العصر، وكانت دنياهم تموج بالطرب والعطاء واقتناص اللذائذ والشهوات والإسراف فيها ليلاً ونهارًا، ولقد كان لهذا التيار الجارف أثره فى نفوسهم، حيث أصبح الغناء ضرورة من ضرورات حياتهم لا يعيشون إلا به، ولا يرون الحياة سهلة جميلة إلا على ضرب الأعواد ونقر الدفوف وترنيم الأشعار وألحان الغناء[٣٣]. وربما كان الغناء تنفيسًا وإشباعًا لميول رغبات جسدية بعثتها فيهم الطمأنينة والرخاء والترف واتساع الدولة، وإشراف نور الحضارة فى نواحيها والإسراف فى اللهو، والانحدار فيه كان نتيجة حتمية لقوم أسسوا ملكهم بالسيف والرماح على مدى عدة قرون من الزمان.

ومما يجب أن نشير إليه أن بعضًا من الحكام فى حبهم للغناء وإقبالهم عليه لم يكونوا دخلاء ولا مرتجلين، بل كان منهم من يتقن العزف على آلاته الموسيقية، ويفهم الغناء فهمًا حسنًا صحيحًا، ويقرب أربابه[٣٤].

بل وتشير بعض المصادر المعاصرة إلى حب بعض السلاطين لهذه الفنون وتشجيعهم لها بحيث أنه مشى سوق أرباب الكمالات فى زمانهم فى كل علم وفن، ونفقت فى أيامهم البضائع الكاسدة من الفنون والملح، وقصدهم أربابها من الأقطار، وهم لا يقلون من الإحسان إليهم، حتى كلمهم بعض خواصهم فى ذلك، فكان رد أحدهم : أفعل هذا لئلا تموت الفنون فى دولتى وأيامى(٣٥).

ومما لا شك فيه أن طبيعة الشعبين الشامى والمصرى كان لها أثرها فى ازدهار هذه الفنون، فاسمع معى إلى المقريزى وهو معاصر يتحدث عن ذلك بقوله: "وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك فى الملذات، والاشتغال بالترهات. لما فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم، حتى صار أمرهم ذلك مشهوراً. والمثل بهم مضروباً(٣٦).

كما يذكر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زار البلاد أواخر ذلك العصر أن أهل هذه البلاد ذوو طرب وسرور ولهو(٣٧). وكان للرقص فى نفوسهم أثر أى أثر، يتعشقونه ويعرفون ضروبه، ويميزون بين حلوه ورديئه، ولم يكن عشقهم للرقص عشقًا ساذجًا بل كان عشقًا مبنيًا على أسس من الفهم الدارس والذوق الموروث(٣٨). كما أن الغناء فى ذلك العصر لم يكن ضربًا من ضروب اللهو والتسلية والمرح فحسب، بل هو جزء من حياة الناس المعنوية والمادية لا تستطيع الحياة أن تستغنى عنه، كما أنه فن له أصول وفلسفات لا تقل عن فلسفات الشعر وأصوله. وللمغنين فى ذلك العصر أبحاث فى أصول هذا الفن وقواعده يستطيع الباحث فى فن الموسيقى أن يقف منها على خصائص ممتازة للغناء. هذا إلى جانب أن الغناء كان صورة واضحة لحياة الناس الاجتماعية والسياسية والعقلية فى ذلك العصر(٣٩).

وشهد ذلك العصر نزعة خاصة فى فن الغناء والطرب، حيث كان الناس جميعًا يؤثرون المغنية على المغنى وكأنهم متأثرين بقول الثعالبى فى كتابه "تحفة الأرواح

وموائد السرور والأفراح" : أن غناء النساء ذوات الحسن والدلال له موقع أحسن من موقع غناء الرجال وإن كان أجود منه". أو يبدو أنهم كانوا قد آمنوا بمقولة الأصفهاني بأن "نعيم الدنيا أن تسمع الغناء من فم تشتهى تقبيله"، حيث أن السامع لا شك مجذوب فى سماعة المغنيات بشيئين هما حسن الصوت بالإضافة إلى الجمال وحسن الهيئة. وهو ما يفسر لنا ما كان للنسوة المغنيات والعازفات من حظوة(٤٠).

ومما لا شك فيه أن النساء المغنيات لقين قبولاً لدى الناس فلعبن بألبابهم غناءً وجمالاً، وبذلك أطلقن ألسنة الشعراء، يقولون فيهن ما يعن لهم من خواطر يلهبها ذلك الإحساس المرهف والذوق السليم بحسن الصوت، مما حرك ملكة القول لديهم يدفعهم الإحساس بالجمال وحلاوة وبراعة الأداء. ولا نغالى إذا قلنا إن الإحساس بالجمال هو الذى فاض فى شعرهم وغلب على إحساسهم بحلاوة الغناء، فانظر معى إلى أحد الشعراء، يصف إحدى النساء المغنيات بقوله:

جاءت بوجه كأنه قمر　　على قوام كأنه غصن

غنت فلم تبق فىّ جارحة　　إلا تمنيت أنها أذن(٤١)

وأكثر شعراء هذا العصر من الحديث عن الغناء والمغنيات وعن الطرب وآلاته. ومن الملاحظ أنه ذلك ارتبط فى معظم الأحيان بمجالس اللهو. فيقرن أحد الشعراء بين لذة الخمر ولذة الغناء، وكأن الندامى سكروا بالغناء لا بالخمر وذلك عندما يقول :

غنت فأغنت عن كئوس الطلا　　بالسكر من لذات تلك اللحون

فقلت إذ هيمنى صوتها　　فى مثل ذا الحلق تروح الذقون(٤٢)

وفى مثل تلك المجالس نلاحظ أن النساء استأثرن بالحظوة، وذلك لبراعة الكثير منهن فى العزف على الآلات الموسيقية المختلفة. نرى ذلك بوضوح فيما نقرؤه من شعر هذا العصر، فهذا "سيف الدين المشد" يصف تلك العوادة التى تحتضن عودها فى حنان، وتضبط أوتاره فى مهارة فائقة حين يقول:

وحاضنة صنمًا ناطقـــا وتكرم مثواه مثل الولـــد

تدغدغ أحشاءه صالحـــا وتعـرك آذانـــه إن فســد

ويقول فى جارية تغنى على الدف :

وجارية قرعـــت طارهـا وغنت عليه بصوت رطيـــب

فعاينت شمس الضحى أقبلت وبـدر تقدمـهـا عن قريـــب

كما يقول "ابن نباته" فى مجموعة من النساء يضربن الدفوف ويعزفن على العود:

وفى مثل تلك المجالس نلاحظ أن النساء استأثرن بالخطوة، وذلك لبراعة الكثير منهن فى العزف.

وغـوان تغـنـى عـن الطـــيب والحلى لهذا تسمى الحسان غوانى

ضاربات الدفوف فى جيش لهو طاعـنـات الهمـــوم بالعيــــدان

وطبيعى فى مثل هذه المجالس أن يكون للجمال نصيبه فى إحداث اللذة إلى جانب الصوت الحسن، وأن تمتزج لذة السماع بلذة النظر، ولعل هذا الامتزاج يظهر فى أبيات للشاعر ابن نباته التى يصف فيها عوادة بقوله :

بروحى هيـفاء المعاطـف حلـوة تكـاد بألحـــاظ المحبين تشـرب

لقد عذبــت ألفاظـها وصفاتها على أن قلـبى فى هواـها معـذب

تجاسر عود اللهو يشبه صوتها فمن أجل هذا أصبح العود يضرب

وأجرى دموع العاشقين بلعبها فقال الأسى دعها تخوض وتلعب

فاللذة كما نرى ليس العوادة مبعثها الغناء وحده أو العزف وحده، وإنما هى ناشئة عن جمال الخلقة فى تلك العوادة الهيفاء، أو فى تلك المغنية ذات الدل[٤٣].

واقرأ معى هذه الأبيات التى يقولها "الفارقى" فى راقصة من هؤلاء الراقصات اللاتى أخذن بلب ومشاعر المشاهدين والشعراء فى ذلك العصر حين يقول :

لله راقـصـة تميـس كأنهـا ... ظل القضيب إذا تمايل مزهـوا

تزهو وترجع كالخيال فلا تـرى ... حركاتـها إلا كطائـفـة الكـرى

لانت معاطفها فكيف تلفـتت ... وتقلتـت لا يستطـاع بأن تـرى

وشاعر آخر هو "صلاح الدين الصفدى" يصف مغنية عوادة استهواه منها جمالها وضربها على عودها وغناؤها، ولقد كان جمالها فيما أظن أسبق إلى عينيه من صوتها وصوت عودها إلى أذنيه فقال :

أبصرت يا عينى ما لم تبصرى ... وسمعت يا أذنى ما لم تسمعى(٤٤)

وكما أن المرأة استأثرت بالحظوة فى مجال الطرب. فإن الكثيرات من النساء برعن فى العزف على آلاته المختلفة، فهناك من أتقنت العزف على العود، وهناك من أتقنت العزف على المزمار، وهناك ضاربة الدف، وهناك من أتقنت العزف على آلة الجنك وهى آلة مغولية الأصل تشبه العود، قدمت إلى الشام ومصر مع الهجرات المغولية التى شهدها ذلك العصر أيضاً(٤٥).

ويعكس لنا أدب ذلك العصر وصف هؤلاء العازفات، فمنهن عوادة تحتضن عودها فى حنان، وتضبط أوتاره فى مهارة، أو وصف إحداهن تغنى على الدف وغيره من الآلات الموسيقية. كما يعكس لنا أدب ذلك العصر ما كانت تلجأ إليه بعض المغنيات من حركات خليعة، وتأوهات مثيرة تلهب أوار الشهوة لدى السامعين(٤٦).

وشارك الرقص الغناء فى مجالس الطرب، ونقع فى "شعر صفى الدين الحلى" على صورة لنساء يرقصن بالشراب، ويرى بعض الباحثين أنه ربما تخلف عن ذلك العصر ما نراه أحيانا من عمد بعض الراقصات "البلديات" إلى لبس ملابس الرجال

والرقص فيها(٤٧). كما أشارت الصور الأدبية إلى حركات الراقصات المتسقة مع إيقاع الموسيقى والغناء، بحيث تتنوع متعة المشاهدين بين الرقص والغناء(٤٨).

كما كان الرقص ينافس الغناء فى مجالس اللهو والسرور، وكانت الراقصات يتعلمن ضروبه على أيدى معلمين حذاق فى الفن. وعن الحركات التى كانت تقوم بها الراقصات فى ذلك العصر، فإن الأدب يصور لنا إحدى الراقصات بحركاتها السريعة التى تمد فيها صدرها وترفع رأسها حيناً، ثم تعود فتنثنى وتتراجع، وتلف تارة أخرى، حتى وكأنك أمام ضرب من الرقص قريب من الرقص الهندى الذى نشاهده فى أيامنا هذه، والذى لم يبق منه عندنا سوى صورته المعروفة بالرقص البلدى، أو رقص البطن. ويصور لنا أحد شعراء ذلك العصر وهو "ابن أبى اليسر" إحدى الراقصات بما يظهر لنا رشاقة خطوها، وخفتها التى تشبه خفة الفراشة، بما يدل على أن الرقص كان حركة رشيقة دائبة، وخطوات بالقدمين والساقين، والتفاتاً متناسقًا بأجزاء الجسم، كل هذا مع إيقاع الموسيقى(٤٩).

وفى وصف "لصفى الدين الحلى" لراقصات يرقصن بالشراب نرى لمحات جديدة لهذا الفن فى ذلك العصر، فقد كان من عادة الراقصات أن يشددن أوساطهن بالزنانير، وأنهن كن يتثنين بأعطافهن ويهززن بأعجازهن، كما كن يتخذن أحيانا زى الغلمان وهيئتهم. كذلك من ملامح الصورة التى يرسمها لنا فى شعره يتضح أنهن كن يستخدمن صنوجًا من الخشب، وكن يُجدن الإيقاع بها، كما أنهن كن يُجدن الإيقاع بالأرجل وحركات الأيدى ودقات الصنوج، فتأتى كلها متناسقة لا نشوز فيها ولا انحراف(٥٠).

وتجدر الإشارة إلى أن المغنيات فى ذلك العصر حظين بمغريات ثلاث. حسن أصواتهن، وجمال أشكالهن، ثم أدب فى فن القول، شاركن به أدباء ذلك العصر. وهكذا جمعن أسباب التأثير كله، فأتين الحياة من أوسع أبوابها، وكانت لهن تلك المنزلة التى فضلتهن على المغنين من الرجال. كما أسرفت هؤلاء المغنيات فى جذب الأفئدة

إليهن بعد جذبهن الأنظار فلعبن بالأفئدة بعدما لعبن بالأبصار والأسماع، فنراهن يتفنن فنوناً مختلفة، فيكتبن على آلاتهن التى يضربن بها ويعزفن عبارات منقوشة طريفة فى الهوى والعشق والغرام. فيحكى لنا صاحب طالع البدور من تلك العبارات التى كانت تنقش على الآلات ما نقشته إحداهن، وكانت تدعى "مزنة" على مضرابها "من نظر إلى سوانا لم يصدق فى هوانا" ويقول إن راقصة كان اسمها "ظوافر" كانت تكتب على عودها "رافق من ترافق، وقارب من تصاحب" كما أن عازفه تدعى "ضوء الصباح" وكانت مشهورة كتبت على عودها بالذهب "من خالفنا ليس منا"(٥١).

وينبغى أن نشير إلى ما كان لبعض النساء البارعات فى الرقص وفنون الغواية من أثر فى إثراء الحياة فى مجالس الطرب واللهو، وهن اللائى عرفن باسم "الجوارى السميرات"، وهذا النوع من الجوارى كان معروفاً فى بغداد فى العصر العباسى بوجه خاص، وانتشر فى الشام ومصر عصر الحروب الصليبية(٥٢) وبوسعنا أن نتمثل ما كان يدور فى مجالس السميرات من محاورات ومساجلات، ومن تحايل فى إدخال السرور على قلوب الحاضرين، وقد كن يجمعن بين الحذق والحسن والظرف والعشرة. وتخلل المجالس الخاصة بهن كثير من المطارحات الأدبية بين الشعراء والأدباء بعضهم وبعض، الذين كانوا يجدون فى مجالسهن ما يجده المحدثون فى صالونات الأدب من متعة، كما وجد بعضهم فيها مجالاً يفرج فيها عن نفسه، بعد أن حجزها طول نهاره فى وقار العمل الرسمى(٥٣).

المرأة ومسرح العرائس "خيال الظل"

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض النساء قد دربن على اللعب بالعرائس أو "بخيال الظل" كما كان يعرف فى ذلك العصر. والذى قيل إنه من الفنون التى انتقلت من الهند إلى الصين إلى بلاد العالم الإسلامى، ومنها الشام ومصر. ولقى رواجاً كبيراً من عامة الناس وخواصهم. وتعرف تمثيليات خيال الظل باسم "البابات" ومفردها

بابه والبابات كتبت بلغة هى مزيج من الفصحى والعامية، وكلماتها بلا شك كانت جزءا من متداولات الشعب وقتذاك، وحتى الأشعار التى فيها كانت مكتوبة دون اعتبار لقواعد الشعر الصحيح. أما عن طريقة عرض هذه التمثيليات فتتلخص فى عمل عرائس وصور من الجلد أو الورق المقوى، وتوضع خلف ستارة بيضاء ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظلالها على الستارة ليراها النظارة من الوجهة الأخرى، والعرائس بها ثقوب ومفصلات تجعلها سهلة الحركة، ويحركها الذى يقدم البابه بعصا فى يده حسب الحوار الذى ينطق به صاحب البابه(٥٤). وواضح من خلال الأدب المعاصر لهذه الحقبة أن المرأة قد شاركت فى هذا النوع من الفنون، وبرعت فيه. فقد قال "الوجيه المناوى" وهو يصف امرأة تلعب بخيال الظل :

أرتنا خيال الظل والستر دونها فأبدت خيال الشمس خلف غمام

تلعب بالأشخاص من خلف سترها كما لعبت أطرافها بأنام(٥٥)

وتنبغى الإشارة إلى أن عملية التعبير بالشخصية المتخيلة عن طريق الدمية عملية تتطلب من "المخايلة" أى المرأة التى تلعب بالدمى قوة متفوقة فى التصوير لأنها ليست كالممثلة تقوم بأداء دور معين أمام غيرها، ولكنها هنا تقوم بجميع أدوار رواية خيال الظل. ومعنى هذا أن هذه المرأة كانت لها دربة طويلة على استعمال ملكة التصوير والذوق وسرعة البديهة والإنشاء، والقدرة على تنغيم الصوت ووضعه فى ضروب رنين مختلفة تتفق والطوابق الصوتية للشخصيات.

و"المخايلة" كذلك تفشل إن لم يتدفق صوتها بالحيوية والتعبير، وإن لم ترسم أشكالها شخصيات تمثيلية بصدق مطابق، وإن لم تحركها فى انسجام وقوة مؤثرة تبعاً للنص المستقى من مادة الحياة والشعب وما يهيج خواطر المشاهدين وأفكارهم. و"المخايلة" هى شاعرة ومنسقة وممثلة، وهى صاحبة الأدوات التى تستعملها، ولربما كانت مغنية أيضاً وفى أسرة فنية تساعدها على التكسب والإبداع(٥٦).

المرأة والمنشآت الثقافية :

من المفيد أن نذكر أن دور المرأة لم يكن قاصراً على مجرد مشاركتها بجهدها وعلمها فى كثير من مجالات الحياة الثقافية فى ذلك العصر، بل كان لكثير من نساء ذلك العصر فضل يذكر فى تشييد كثير من المنشآت الثقافية الهامة، وأوقفن عليها الأوقاف المختلفة لضمان استمرارها فى أداء وظيفتها التى أنشئت من أجلها سواء فى حياتهن أو بعد مماتهن. نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر "عصمة الدين ابنة معين الدين أنر"، وكانت فى عصمة نور الدين محمود بن زنكى، فلما توفى وخلفه صلاح الدين الأيوبى تزوج بها سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وكانت من النساء العفائف، ذات معروف وصدقة وصلاح، كثيرة الأوقاف على الخير، أنشأت مدرسة للحنفية بدمشق ورباطاً للصوفية، ولما ماتت دفنت بتربتها التى أنشأتها بقاسيون بدمشق[٥٧].

كما نذكر المدرسة القطبية بالقاهرة، بأول حارة زويلة برحبة كوكاى، التى أمرت بتشييدها الست الجليلة عصمة الدين خاتون مؤنسة القطبية ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب، وذلك من مالها الخاص، وكان وقفها سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م. وأوصت بأن يُجعل فيها درس للفقهاء الشافعية، ودرس للحنفية، وأن يشترى لها وقف للإنفاق من ريعه على هذه المدرسة وعلى من ينزلها من الفقهاء وطلبة العلم، والقائمين عليها، وظلت عامرة إلى أواخر القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى[٥٨].

كذلك نذكر الست الجليلة خوند تتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون زوجة الأمير بكتمر الحجازى، التى شيدت المدرسة الحجازية برحبة باب العيد من القاهرة بجوار قصر الحجازية، وجعلت بهذه المدرسة درساً للفقهاء الشافعية، ودرساً للفقهاء المالكية، وجعلت بها خزانة كتب "مكتبة"، وجعلت بجوار المدرسة مكتباً

للسبيل "كتابًا" فيه عدة من أيتام المسلمين ولهم مؤدب يعلمهم القرآن الكريم، ويجرى عليهم فى كل يوم لكل منهم من الخبز النقى خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس، ويقام لكل منهم بكسوتى الشتاء والصيف، وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم "المرتبات" السنية[٥٩].

كما نذكر الست حدق "دادة" الملك الناصر محمد بن قلاوون التى شيدت جامعًا بخط المريس فى جانب الخليج الناصرى مما يلى الغرب من قنطرة السد، أقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وسبعمائه، وهذا الجامع ما زال قائمًا إلى الآن فى المنطقة المواجهة مباشرة للمدرسة الخديوية الثانوية بحى السيدة زينب من القاهرة[٦٠].

وينبغى أن نذكر أن عدداً لا بأس به من نساء ذلك العصر قد كان لهن كبير الاهتمام ببناء العديد من الربط وهى الأماكن المخصصة للنساء والتى تغلب على كل منها صفة الملجأ، أو المودع للنساء الأرامل والمطلقات والمهجورات، ويخصص كل رباط منها غالبًا لإقامة النساء، وسماع دروس الوعظ والإرشاد، وتقديم المأوى والغذاء والكساء لهؤلاء النسوة، والاهتمام بتوفير الرعاية الصحية للمقيمات[٦١]. ولقد شاركت كثير من النساء فى إقامة هذه الربط وحبس الأوقاف الضخمة عليها حتى تقوم بدورها فى حياة الواقفات وبعد مماتهن سواء فى مصر أم فى بلاد الشام، بل وتشير بعض المصادر المعاصرة إلى أن بعض النساء لم يكتفين بتشييد هذه الربط فى مصر والشام فحسب بل أقمنها فى كثير من أنحاء العالم، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر الشيخة زينب ابنة عمر بن كندى بن سعيد الدمشقى البعلبكية الدار المعمرة الزاهدة أم محمد وهى من كبار شيخات الصوفية، فلقد شيدت رباطا فى مكة وظلت ترعاه إلى أن ماتت وقد جاوزت السبعين من عمرها[٦٢].

وهكذا شاركت المرأة المصرية والشامية فى عصر الحروب الصليبية بجهد يذكر فى شتى مجالات الحياة الثقافية من تعليم وتعلم، وسعى ورحلة فى طلب العلم، ونبوغ فى كثير من العلوم العقلية والنقلية، وشتى أنواع الفنون، وتشييد الكثير من المنشآت الثقافية، وحبس الأوقاف عليها. وشاركت الرجل مشاركة فعالة فى هذا المضمار، بل إنها بزت الرجل فى بعض المجالات وكما يشهد لها بذلك بعض كبار رجالات ذلك العصر.

هوامش:

(١) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ٨، ص ٣٢١-٣٢٣؛ على السيد على: الحياة الثقافية في المدينة المنورة عصر سلاطين المماليك، ص ٩١.

(٢) الفاسي: نفسه، جـ٨، ص ٢٥٥-٢٥٦؛ على السيد: نفسه، ص ٩١.

(٣) المصدر السابق، نفسه، جـ٨، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٤) ابن فهد : الدر الكمين، مخطوط، ورقة ٤٢٨-٤٣٥.

(٥) الفاسي : نفسه، جـ٢، ص ٢٠٥-٢١٠ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د٠ت٠ط، جـ٦، ص ٣٢٩.

(٦) العقد الثمين، جـ٢، ص ٨٥-١٣١-٢٠٢-٢٠٥.

(٧) المصدر السابق، نفسه، جـ٢، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٨) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٣٩٣.

(٩) السخاوي : الضوء اللامع، جـ١٢، ص ١٢٩ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء، جـ٣، ص ٧٩٧.

(١٠) المقريزي : درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق د٠ محمد كمال الدين عز الدين على، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢، جـ٢، ص ٤٨٣، جـ١، ص ١٦.

(١١) ابن تغري بردي : المنهل الصافي، جـ٥، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(١٢) السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان، بيروت ١٩٢٧، ص ١٠١.

(١٣) ابن تغري بردي : المنهل الصافي، جـ١، ص ٥١.

(١٤) المصدر السابق : جـ١، ص ٣٢٦.

(١٥) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص ٣٦٨.

(١٦) التجيبي "أبو القاسم يوسف" مستفاد الرحلة والاغتراب، تونس، ١٩٧٥، ص ٣٧-٥٣ ؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، جـ١، ص ١٣١ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، القاهرة ١٩٧٩، جـ٣، ص ٤٨٥-٤٨٧.

(١٧) د. فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٢٩٦.

(١٨) د. سعيد عاشور : المجتمع المصرى، وما به من مصادر ومراجع، ص ١٣٩.

(١٩) أحمد رمضان : المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية، ص ٢٧٦-٢٧٧، نقلا عن محمد كرد على : خطط الشام، جـ٤، ص ٤٠، جـ٦، ص ٤٧.

(٢٠) درر العقود الفريدة، جـ٢، ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٢١) محمد على مغربى : ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز فى القرن الرابع عشر، جدة ١٩٨٢، ص ١٦١ ؛ على السيد على : الحياة الثقافية فى المدينة المنورة، ص ١٢٧-١٣٨.

(٢٢) أسعد منصور : تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة، القاهرة، ١٩٢٤، ص ٢٧٥.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٥، على السيد على : القدس فى العصر المملوكى، ص ٢٧١.

(٢٤) Felix Fabri : The Book of the Wandering of Brother Felix Fabri in P.P. T.S vol. 9-10 London 1897, pp. 379 - 382 ; Marie Joseph : A pilgrimage to Palestime, Egypt and Syria, London 1840, p. G ؛ على السيد على : القدس، ص ١٥١.

(٢٥) محمد قنديل البقلى : الطرب فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١١-١٣.

(٢٦) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ١، قسم ١، ص ٣٨١.

(٢٧) المصدر السابق، نفسه، جـ١، قسم ١، ص ٤٨٨ ؛ على السيد على : الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية، ١٩٨٨، ص ٥١-٥٤.

(٢٨) فوزى محمد أمين: المجتمع المصرى، ص ٣٠٧ ؛ على السيد على : الجوارى، ص ٥٤.

(٢٩) فوزى محمد أمين : نفسه، ص ٣٠٥-٣١١.

(٣٠) الشربينى : هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٥.

(٣١) محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى. دار المعارف، ١٩٧١، جـ١، ص٢٨١-٢٨٥.

(٣٢) محمد قنديل البقلى : نفسه، ص ٤٣-٤٤ ؛ محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر المملوكى، جـ١ ص ٢٨١-٢٨٥.

(٣٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ٤، ص ٢٥٢.

(٣٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ١، ص ٩٦ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور، جـ١، قسم ١، ص ٥٧٧-, ٥٧٩

(٣٥) ابن تغرى بردى : نفسه، جـ١١، ص ٨٢.

(٣٦) الخطط، جـ١، ص ٤٧.

(٣٧) الرحلة، نشر دار صادر بيروت، ١٩٦٤، ص ٣٢.

(٣٨) محمد قنديل البقلى : نفسه، ص ١٤.

(٣٩) فايد العمروسى : الجوارى المغنيات، ص ٣٢ ؛ على السيد على : الجوارى، ص ٨٣.

(٤٠) محمد قنديل البقلى : نفسه، ص ١٠٠ ؛ على السيد : الجوارى، ص ٨٣-٨٤.

(٤١) محمد قنديل البقلى : نفسه، ص ١٠٠ ؛ على السيد : الجوارى، ص ٤٨-٥٠ .

(٤٢) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، جـ٤، ص ١٧٣.

(٤٣) فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى، ص ٣٧١-٣٧٣.

(٤٤) المرجع السابق، ص ٣٤٣ ؛ على السيد : الجوارى، ص ٥١-٥٢.

(٤٥) ابن اياس : بدائع الزهور، جـ٢، قسم ٢٢٠ ؛ على السيد على : الجوارى، ص٩٠.

(٤٦) فوزى محمد أمين : نفسه، ص ٣٧٢.

(٤٧) محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى، جـ١، ص ٢٩٠.

(٤٨) الأدفوى "كمال الدين" : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، القاهـرة ١٩٦٦، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٤٩) محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى، جـ١، ص ٢٨٦-٢٩٠ ؛ على السيد على : الجوارى، ص ٩١-٩٢.

(٥٠) المرجع السابق، جـ١، ص ٢٩٠-٢٩١ ؛ على السيد على : الجوارى، ص ,٩٢

(٥١) محمد قنديل البقلى : نفسه، ص ٧٠-٧١، على السيد على : نفسه، ص ٩٣.

(٥٢) المقريزى : السلوك، جـ٢، قسم ٣، ص ٥٩٢ ؛ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، جـ٤، ص ٨ ؛ على السيد على : الجوارى، ص ١٠٦-١٠٨.

(٥٣) جبور عبد النور : الجوارى، ص ٩٥-٩٧ ؛ على السيد على : الجوارى، ص ١٠٨.

(٥٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى، ص ١٠٥ ؛ إبراهيم حمادة : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، القاهرة ١٩٦٢، ص ١١٧-١١٨.

(٥٥) الغزولى " علاء الدين" مطالع البدور فى منازل السرور، طبعة ادارة الوطن، ١٢٩٩هـ جـ١، ص ٢٦١ ؛ محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى، جـ١، ص ٢٩٢.

(٥٦) إبراهيم حمادة : خيال الظل، ص ١١٠-١١٧ .

(٥٧) ابن شاهنشاه الأيوبى "المنصور محمد بن تقى الدين عمر" : مضمار الحقائق وسر الخلائق، عالم الكتب، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٢٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم، جـ٦، ص ٧٨-٩٩,

(٥٨) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص ٣٦٨-٣٩١.

(٥٩) المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٨٢.

(٦٠) المصدر السابق : نفسه، جـ٢، ص ٣١٣,

(٦١) ابن حجر : إنباء الغمر، جـ١، ص ٣٧٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع، جـ١٢، ص ٢٥ ؛ سعيد عاشور المجتمع المصرى، ص ١٧٣ ؛ على السيد على : الرعاية الاجتماعية فى مكة المكرمة عصر سلاطين المماليك، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، يناير ١٩٩٦، ص ٩٣، ٢١٨-٢١٩.

(٦٢) ابن فهد " نجم الدين بن عمر" الدر الكمين بذيل العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، مخطوط مصور بمعهد إحياء المخطوطات العربية برقم ٢٦١٣، ورقة ٣٨٣-٣٨٤ ؛ على السيد على : الرعاية الاجتماعية فى مكة ص ٢١٨-٢١٩.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

- المخطوطات:

١- ابن فهد "نجم الدين عمر" : الدر الكمين بذيل العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، مخطوط مصور بمعهد إحياء المخطوطات العربية برقم ٢٦١٣.

٢- ابن ظهيرة "جمال الدين محمد" " الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، مخطوط بدار الكتب المصرية.

ثانياً : الكتب المطبوعة:

٣ – الأدفوى " كمال الدين" الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤ – أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، جامعة برنستون، ١٩٣٩م.

٥ – ابن إياس "محمد بن أحمد الحنفى" : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، القاهرة ١٣١١هـ.

٦ – ابن أيبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر، القاهرة، ١٩٦١م.

٧ – ابن الأخوة "محمد بن محمد بن أحمد القرشى" : معالم القربة فى أحكام الحسبة، مكتبة المتنبى بالقاهرة، بدون تاريخ طبع.

٨ – بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، تحقيق د. زبيدة محمد عطا، الرياض، ١٩٨٢م.

٩ - ابن تغرى بردى "جمال الدين أبو المحاسن" : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ١٩٣٩م.

١٠- ابن جبير "محمد بن أحمد": الرحلة، نشر دار صادر بيروت، ١٩٦٤م.

١١- ابن الحاج "أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى" : المدخل : مدخل الشرع الشريف على المذاهب، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٢٩م.

١٢- ابن حجر "شهاب الدين أحمد" : إنباء الغمر بأبناء العمر، القاهرة، ١٩٦٩-١٩٧٢م.

١٣- السبكى "تقى الدين عبد الوهاب بن على" : معيد النعم ومبيد النقم، القاهرة ١٩٤٨م.

١٤- السخاوى "محمد بن عبد الرحمن" : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء، القاهرة، ١٣٥٥هـ.

١٥- السخاوى : التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٦- السخاوى : التبر المسبوك فى ذل السلوك، القاهرة، ١٩٧٤م.

١٧- ابن سعيد " المغرب فى حلى المغرب، القاهرة، ١٩٥٣م.

١٨- السيوطى "عبد الرحمن بن أبى بكر" : نظم العقيان فى أعيان الأعيان، القاهرة، بيروت، ١٩٢٧م.

١٩- ابن شاهنشاه الأيوبى "المنصور محمد بن تقى الدين" مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د. حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢٠- ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٩٨٤م.

٢١- الشربينى "يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر" : هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف، طبع القاهرة، ١٩٦٨م.

٢٢- الشيزرى "عبد الرحمن بن نصر" : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة،، تحقيق د. السيد الباز العرينى، القاهرة، ١٩٤٦م.

٢٣- ابن الصيرفى "على بن داود" : نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشى، القاهرة، ١٩٧٢م.

٢٤- ابن طولون الصالحى : القلائد الجوهرية، بيروت، ١٩٧٢م.

٢٥- ابن عبد الظاهر "محيى الدين عبد الله" تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

٢٦- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، الرياض، ١٩٧٦م.

٢٧- العماد الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى، القاهرة، ١٩٠٣م.

٢٨- ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، بيروت، بدون تاريخ طبع.

٢٩- الغزولى "علاء الدين" : مطالع البدور فى منازل السرور، طبع إدارة الوطن، ١٢٩٩م.

٣٠- أبو الفداء "الملك المؤيد" : المختصر فى أخبار البشر، القاهرة، ١٣٢٥هـ.

٣١- ابن الفرات "ناصر الدين محمد" : تاريخ ابن الفرات، بيروت، ١٩٤٢م.

٣٢- القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م.

٣٣- ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨م.

٣٤- القلقشندى : "أبو العباس أحمد" : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩٨٩-١٩٢٢م.

٣٥- المقريزى "تقى الدين أحمد بن على" : السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة، ١٩٥٨م.

٣٦- مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة د. حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٤م.

٣٧- ابن واصل "جمال الدين محمد" : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، القاهرة، ١٩٦٠م.

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة :

٣٨- إبراهيم حمادة : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣٩- د. أحمد رمضان : المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام، عصر الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٤٠- أحمد خيرت : مركز المرأة فى الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٣م.

٤١- أديب لحود : العادات والأخلاق اللبنانية، بيروت، ١٩٥٣م.

٤٢- أسعد منصور : تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة، القاهرة، ١٩٢٤م.

٤٣- د. إلهام محمد ذهنى : مصر فى كتاب الرحالة الفرنسيين، القاهرة، ١٩٩١م.

٤٤- أمين معلوف : الحروب الصليبية كما رآها العرب، بيروت، ١٩٩٣م.

٤٥- براور "يوشع" : عالم الصليبيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.

٤٦- د. جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧م.

٤٧- د. حسن حبشي : رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة، ١٩٦٨م.

٤٨- رنسيمان "ستيفن" : تاريخ الحروب الصليبية، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٦٩م.

٤٩- د. زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٥٨م.

٥٠- جروهمان : أوراق البردي العربية، ٦ أجزاء، القاهرة، ١٩٣٤م.

٥١- دوزي : المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، بغداد، ١٩٧١م.

٥٢- د. سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٣م.

٥٣- صوفي عبد الله : نساء محاربات، القاهرة، ١٩٩١م.

٥٤- د. عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي، القاهرة، ١٩٨٥م.

٥٥- د. عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك في مصر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥٦- عبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغوري، القاهرة، ١٩٧٦م.

٥٧- د. علي السيد علي محمود : القدس في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٨٦م.

٥٨- د. علي السيد علي محمود : الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية، القاهرة، ١٩٨٨م.

٥٩- د. علي السيد علي محمود : الحياة الثقافية في المدينة المنورة، القاهرة، ١٩٩٤م.

٦٠- على عبد الواحد وافى : الحرية فى الإسلام، القاهرة، ١٩٨٦م.

٦١- على مبارك : الخطط التوفيقية، القاهرة، ١٣٠٦هـ.

٦٢- د. فوزى محمد أمين : المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول، القاهرة، ١٩٨٢م.

٦٣- د. كامل جميل العسلى : وثائق مقدسية تاريخية، عمان، ١٩٨٣-١٩٨٥م.

٦٤- لجنة من الأدباء : لبنان مباحث علمية واجتماعية، بيروت، ١٩٤٧م.

٦٥- لحد صعب : مختصر طائفة الروم، بيروت، ١٩١٤م.

٦٦- د. محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٧١م.

٦٧- د. محمد عيسى صالحية : من وثائق الحرم القدسى الشريف، حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٦٨- محمد قنديل البقلى : الطرب فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٨٤م.

٦٩- د. محمد محمد أمين : وثائق من عصر سلاطين المماليك، القاهرة، بدون تاريخ طبع .

٧٠- د. محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، القاهرة، ١٩٨٠م.

٧١- محمد سيد كيلانى : الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى، القاهرة، ١٩٠٦م.

٧٢- د. محمد مرسى الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الاسكندرية، ١٩٧٤م.

٧٣- د. محمد مؤنس عوض : الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٩٥م.

٧٤- نعمان القساطلى : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء، بيروت، ١٩٧٩م.

٧٥- د. نقولا زيادة : رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى، بيت المقدس، ١٩٤٣م.

رابعاً : المصادر والمراجع الأجنبية :

67- Adler : Jewish Travellers, London, 1930.

77- Burchard of Mount sion : A description of the Holy Land, London, 1896.

78- Fresco Paldi, Gucci and Sigoli : Avisit to the Holy Places, Jerusalem, 1948 .

79- Lees : Village Life in Palestine, London , 1905.

80- Ludovico : The Travels of Ludovico Di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Desrt, London, 1863 .

81- Margaret Newett : Canon Pietro Casola's Pilgrims to Jerusalem, Manchester, 1907.

82- Michaud : History of the Crusades, London, 194 .

83- Prescott : Once to Sinai, London, 1957.

84- Schefer : Voyage du Magnifique, Paris, 1969.

85- Suriano : Treatise on the Holy Land, Jerusalem, 1948.

86- Thomas Wright : Early Travels in Palestine, London, 1948.

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٧٩٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 305 - 339 - 3

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

يمكننا القول إن الغزوة الصليبية قد صحبتها حركة رد فعل قوية لدى السكان المحليين، تمثلت فى حركة الإبهار التى تشهد عليها كثير من النواحي، نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - صناعة الأقمشة وزخرفة الملابس، والتى ازدهرت فى مدن مثل الإسكندرية وتنيس والقاهرة، ودمشق وحلب، وساعد عليها هجرة الفنانين والصناع بعد تدمير المغول لمراكز الحضارة الشرقية فى إيران والعراق .

كما تمثلت حركة الإبهار هذه فيما قام به أبناء هذه البلاد من حركة جهاد دينية، شاركت فيها المرأة بدور رائد مادياً ومعنوياً، كما أسهمت فى إدارة الصراع مع العدو الدخيل، وكانت بطولاتها ونخوتها لا تقل عن بطولة ونخوة الرجال .

